غازي عبد الرحمن القصيبي

رجلٌ جاءَ.. وذهبَ



دار الساقي

غازي عبد الرحمن القصيبي

رجل جاء.. وذهب



صدر للمؤلّف عن دار الساقي

- العصفورية
- رواية ٧
- العودة سائحاً إلى كاليفورنيا
- دنسكو
- هما
- من هم الشعراء الذين يتبعهم الغاوون؟
- واللون عن الأوراد (شعر)
- حكاية حب

الغلاف: صورة للفنان صالح عبد اللّه العزّاز،
مأخوذة مع الشكر والتقدير، من كتاب «المستحيل الأزرق»،
صالح عبد الله العزّاز وقاسم حداد،
الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ISBN 1 85516 564 3

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7-221 9347, Fax: 020-7-229 7492

إلى

محسون

ملاحظة

قراءة «حكاية حب»[1] قد تقود إلى فهم أفضل لهذا الكتاب، إلاَّ أنها ليست ضرورية.

(١) غازي عبد الرحمن القصيبي، **حكاية حب**، (لندن: منشورات الساقي، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م).

مدخل

قُلتَ «هيّا!»... قُلتُ «هيّا! سِرْ... فما
مـــن طـــريـــقٍ طَـــالَ لا نـــذرَعُـــه»
قـلـتُ ـ والـعُـمْـرُ بـعـيـنـي كـالـكـرى
وأنـــا فـــي حُـــلُـــمٍ أقـــطَـــعُـــه ـ
«جَـمَـع الـدهـرُ حـبـيـبـاً وامـقـاً
بـحـبـيـبٍ... وغـداً يـنـزعُـه»

إبراهيم ناجي

النهاية

خبر صغير في جريدة «الشروق»، يتوارى في صفحة من صفحاتها الداخلية. غياب الروائي المعروف يعقوب العريان. ظريفةٌ «غياب» هذه!. لا مُبرّرَ للقلق. مُجرّدُ غياب. في مصحّ خارج لندن. على إثر صراع طويل مع مرض عضال. الروائي المعروف!. كم كان سيَضحك لو قرأ هذا الوصف، هو الذي لم يأخذ رواياتِه مأخذَ الجِدّ. أقرأ الخبر. وأعيد القراءة. لن أبكي. الآن قد أبكي في المستقبل. كما بكيتُ في الماضي. ألف مرّة. من دون أن يراني هو. من دون أن يراني أحد. من دون أن أرى نفسي. أنزف من الداخل. مطراً أسودَ في غابة استوائية كثيفة، يسيل قطرةً قطرةً. التعذيب بالقطرات. قطرة واحدة، واحدة، أفلتت من عيني أمامه. ليلةَ الوداع. وسقطت على وجهه. كان القمر، من

بعيد، دمعةً كبيرة بيضاء. وكان البحر، أمامنا، دمعة كبيرة زرقاء. كان يضع رأسه على حجري. «غنّي، حبيبتي، غنّي!». ومن الغناء بكاء. الطير المذبوح الراقص. الأغنية الأخيرة. أغنية البجعة. هو الذي قالها. هل صحيح أن البجعة تغنّي أغنيةً واحدة، ثم تموت؟ رجل من البدو. جاء بلا موعد. وذهب بلا موعد. غاب ضاحكاً، على الأغلب. لم يكن يأخذ حياتَه مأخذَ الجِدّ. جاء. وذهب. وترك امرأةً تحاول ألاَّ تبكي. وتحتفظ بكثيرٍ من الحبّ. وكثير من الذكريات. ومفكّرة ستكتب فيها، لنفسها، قصتَها معه. من بدايتها إلى نهايتها.

البداية

«النوم مع السراب». اسم غريب. يعقوب العريان. اسم أغرب. والصديقة التي اشترت الكتابَ من مطار نفطي تصرّ على أن أقرأه. رواية غريبة. جريئة. بذيئة. عن كهول من مضارب النفط. يجتمعون في دار بعيدة عن مجتمعات النفط. مع بنات مراهقات جميلات. من أُسر فقيرة. في مجتمع فقير. يجذبني الكتابُ رغماً عنّي. أحسّ بثورة عارمة تجتاحُ كياني. ثورة على يعقوب العريان. وعلى كهول النفط.

الثورة

البنات الجميلات الفقيرات يتدافعنَ إلى «دار السرور». ويَرجعنَ بساعات لامعة. وظروف محشوّة بالدولارات. ووعود كاذبة. «ستعملين مُضيّفةً، بكلّ تأكيد! أعرف رئيس شركة الطيران». «وأنتِ، أنتِ تصلحين عارضةَ أزياء، بكلّ تأكيد! أعرف مكتباً في باريس». «وأنتِ، سوف تكونين سكرتيرتي الخاصة. ثلاثة آلاف دولار شهرياً، غير المزايا الأخرى». «وأنتِ، تصلحين مذيعةً. أعرف مالك قناة فضائية». أشعر بالثورة تتصاعد مع كلِّ صفحة. أشعر بنقمة شخصية. نقمة المُضيفة التي ستبقى في البيت المتداعي مع أبيها المُقعَد. ونقمة عارضة الأزياء التي لن تعرض شيئاً سوى سيقانها أمام كهول النفط. ونقمة السكرتيرة الخاصة التي سوف ترسب في مدرستها الثانوية، وتُفصَل. ونقمة النجمة التليفزيونية التي سوف ينتهي بها المطاف في دار من دُور الدعارة. ومن هم هؤلاء الكهول؟ ومَن أعطاهم الحقَّ في شراء بنات الناس؟ أبو فُلان. وأبو فلان. وأبو فلان. أعضاء مُنظّمة الفُجور النفطية. الممثّل الشرعي الوحيد للشعب البدوي. هل لهم أسماء حقيقية؟ هل هم أشخاص حقيقيون؟ لا! هم النفط. تجسَّد كُهولاً. يوزِّعون الساعاتِ. والظروفَ المنتفخة. والوعودَ المعسولة. ويُخفون ضحكاتِهم

في أقداح البيرة. ومن الذي كتب هذا الكلام المزعج؟ من هو...

يعقوب العريان

من هو يعقوب العريان؟ أبو مَنْ؟ ولماذا كتب هذه الروايةَ الاستفزازية؟ هذا الكتاب المليء بالملح. يحشو به الجراحَ المُتخمة بالفقر. والجيوبَ المُتخمة بالنفظ. ويا لوقاحة إنسان نفطي يسخر من أصدقائه النفطيين الكهول. وهو - يعقوبُ العريان! - واحدٌ منهم. يشاركهم تسليتهم. بكامل نفطه. بكامل عُريه. وأُجهد خيالي لكي أتصوّره. إلاّ أنه يُفلتُ، كسمكة، من أصابعي. أتصوّره كرشاً ضخماً. ورأساً أصلعَ. ويداً مُغطّاة بخواتمَ ماسية. إلاّ أنّ الصورة تهرب. أتصوّره قزماً أشيبَ، بأسنان صناعية، ونظارة سميكة طبيّة. إلاّ أنّ الصورة تضيع. أتمنّى أن أقابله. لأبصقَ في وجهه. لأقولَ له إن بنات الناس لسنَ للبيع. لأقول له إن عهود المرأة/ الجارية قد ولّت بلا رجعة. لأقول له إنّه ليس من حقّه أن يكتب كتاباً قذراً كهذا. يمتَهنُ كرامتي. ويحتَقرُ أنوثتي. لأقول له إن النفط يستطيع أن يشتري كلَّ شيء. إلاّ الاحترام. لأقول له أشياءَ كثيرة. عنيفة. حادّة. ولكن كيف أستطيع أن أتحدّث إلى رجلٍ مجهول؟ إلى وجه بلا ملامح؟ لو أنني رأيته...

الحلم

جاء الحلم، كأحلامي كلّها، غايةً في الوضوح. وتفاصيله، كالتفاصيل في أحلامي كلِّها، بالغةُ الدِّقة. كنتُ أمشي على الشاطئ، أمام منزلي الصغير. واستوقفني رجل. وسألني عن الطريق إلى المسجد. وتأمّلتُهُ. وعرفتُ، على وجه اليقين، أنّه يعقوب العريان. من دون أن يقدِّم نفسه. وتأمّلتُه وتأملته. كان مختلفاً عن الصُّور الغائمة التي حاول خيالي أن يرسمها. وقف أمامي. طويلاً. نحيلاً. تحت عينيه الضيقتين بُقعتان رماديتان. ووجنتاه شاحبتان. وأنفه ضخم. مفلطح! وفمه ممتلئ. الفم الشبق كما تقول روايات الجنس. ملامح غير متناسقة. كأنّها لوحة من رسم بيكاسو. قبل أن يفقد بيكاسو صوابه نهائياً. وفي العينيْن حزنُ طفل يتيم. وفي الشفتيْن حيويّةُ طفل شقي. والشعر أسود قاتم. لولا شعيراتٌ بيضاء هنا وهناك. طال الحلم. وأنا أتأمّله. وكرَّر السؤالَ. هل هذا حلمٌ من أحلامي الكثيرة التي تتحقق؟ أم واحد من أحلامي النادرة القادمة من عقلي الباطن؟ ولماذا يسألني عن الطريق إلى المسجد؟ هل يعاني عقدةَ ذنب خفيّة؟ ولماذا تظهر العقدةُ في أحلامي أنا، بدلاً من أن تظهر في أحلامه هو؟ أم تُرى أنَّ عقدةَ الذنب عقدتي أنا؟ أنا التي

حاكمتُه وحكمتُ عليه من دون أن أراه؟ ولماذا لم يضع صورته على غلاف كتابه كما يفعل كلُّ الكُتّاب النرجسيين؟ وهل أنا، الآن، بحاجة إلى صورة بعد أن رأيته رأي العين؟

اللقاء الأول

عندما دخل متجر الفندق، كاد قلبي أن يتوقّفُ عن الخفقان. حلمٌ آخر يتحقق. بسرعة البرق. أراه، البارحةَ، في النوم. وأراه، اليومَ، في الواقع. دفنتُ رأسي في كتاب «النوم مع السراب». تجاهلتُ التحيّةَ المُعتَادة لكلّ زبون. تجاهلتُه تماماً. ووقف أمامي. كما وقف في الحلم. إلاّ أنه لم يسأل عن الطريق إلى المسجد. سأل عن شيء يشتريه لزوجته. كنتُ أعرف أنّه يكذب. أعرفُ أنه غير متزوج. أعرف على نحو غامض قاطع. ولكنني لعبتُ معه اللعبة. بِعتُه أغلى ما في المتجر من حليّ مرجانية. وحاولتُ أن أتظاهر باللامبالاة. وأن أتصرّف بكل هدوء. نسيتُ رغبتي في البصق في وجهه. نسيتُ محاضرتي عن النفط الذي يستطيع شراء كل شيء. إلاّ الاحترام. وتركزتْ طاقاتي الذهنية والجسدية على شيء واحد. أن أبدو طبيعية. كان هو مرتبكاً بعض الشيء. خائفاً. حزيناً، كما رأيته في الحلم. شاحباً، كما كان على الشاطئ. قال لي إنّه مؤلّف الكتاب

الذي أقرأه. لم أكن بحاجة إلى التظاهرِ بالدهشة، لأنّه هرب من المتجر قبل أن يرى ردّ فعلي.

الهدية المسمومة

بعد خروجه عاد موظف من موظفي الاستقبال. يحمل إليّ العلبة التي تضمّ الحلي، ومعها ظرف مغلق. رقصتْ على فم الموظّف ابتسامة لئيمة وهو يناولني العلبة، ويقول: «من الأستاذ يعقوب العريان. المحامي الخليجي الثريّ. يبدو أنها هديّة». استفزّني التعليق، ولكني تمالكتُ نفسي. قلتُ: «شكراً. الأستاذ يعقوب صديق زوجي. أعتقد أن الهديّة لزوجي». ابتلع الموظّف ابتسامته، وخرج. تركني لغضبتي العارمة. أخذتُ أذرعُ المتجر الصغير. وأشتم. وأشتم. وأشتم. وأحاول أن أخفض صوتي حتى لا يسمعني أحد. أشتم النفط، ومَنابعه، ومُدنه، وكهوله. ويعقوبَ العريان. وروايته السخيفة. وهديّته المسمومة. ثم هدأتُ. قرأتُ الرسالة القصيرة. هديّة من كاتب إلى قارئة. عذرٌ أقبح من ذنب. وعادت الغضبة. المحامي الثريّ. النفطي. ولماذا نسي إرفاق الدولارات؟ ولماذا لم يترك عنوان «دار السرور»؟ النفطي المتوحشّ. وهديته المسمومة، يحاول شرائي بها. محامي الشيطان!

التقمّص

متى بدأ يعقوب العريان يتقمّصني؟ منذ أن فتحتُ الصفحة الأولى من روايته؟ منذ أن زارني في الحلم؟ منذ أن دخل المتجر؟ منذ أن استلمتُ الهديّةَ المسمومة؟ لا أدري. دقيقةً بعد دقيقة، بدأ يتقمّصني. يوماً بعد يوم، بدأ يسكن أفكاري. إلاّ أنه، بعناد بدوّي، رفض العودة إلى أحلامي. ومع التقمّص، بدأتْ أفكار جديدة. أخذت ألاحظُ المأساة التي يعيشها سكانُ «دار السرور». لا يوازي عذابَ الفَتيات المراهقات سوى عذاب الكهولِ النفطيين. الذين يريدون استرجاع ساعات ماضيهم بساعات ذهبيّة. الذين يغادرون «دار السرور»، كما دخلوها، مُحبَطين خائبين. أحاول أن أتصوّر يعقوب العريان في الدار. على حافة البركة. قرب راضية أو هادية أو سميرة. إلاّ أن الصورة تتسرّب من مخيلتي. أحاول أن أتصوّره يعطي ليلى أو سلمى أو هند وعوداً كاذبة. ومستقبلاً وهمياً. ولكن الصورة ترفض أن تجيء. أحاول أن أُبصره يمنح فاطمة أو سامية أو سناء ظروفاً مليئة بالدولارات. غير أن الصورة لا تتشكل. ومع التقمّص، بدأتْ خواطرُ جديدة. هذا الرجل الشاحب النحيل لا مكان له في «دار السرور». مكانه الطبيعي، مثلي، في دُور الأحزان. في منازل اليأس. في أعماق الجرح. البقعتان

الداكنتان. الوجنتان الشاحبتان. الأنف المفلطح. الفم المكتنز. هذه ملامح لانفطية. سِمات لابدويّة. هذا رجلٌ من لا مكان. لم يجئ من بئر نفط. ولا من مكتب محاماة. ولا من بركة سباحة. جاء من المجهول. من مُدن الآلام المطمورة. من عواصم الشجن المكبوت. بقوامه النحيف. بشحوبه. بالابتسامة الخفيّة على شفتيه. جاء ليتقمّصني. ويذهب.

الحُبّ

وها أنذا أستسلم. أُعلن لنفسي أني أحبُّ هذا الرجل. الرجلَ الذي لم أتبادل معه سوى كلمات قليلة. الرجل الذي لا أعرف عنه سوى خيالات قفزتْ من كتابه المسموم. الرجل الذي أرسل هديّة مسمومة. ومضى. لا أدري من أين جاء. ولا أعرف إلى أين ذهب. وماذا عنه هو؟ هل أسمح للخيال الجامح بأن يقول لي إنه يبادلني الحب؟ ولِمَ لا؟ ألم يضطربْ عندما رآني؟ ألم يرتبكْ؟ ألم يختلق زوجةً وهميّة ليبادلني الحديث؟ ألم يعطِني الهديّة التي اشتراها لزوجته الوهميّة؟ روضة! روضة! روضة! يا لكِ من مراهقة بلهاء! هذه أدلّة لا تصمد أمام أيّ محكمة. واسألي المحامي الثريّ إذا كنتِ في شكّ من أمرك. لو أحسّ نحوك إحساساً كالذي

تتخيلينه لترك شيئاً غير الهديّة. وغير السطر الوحيد. لترك عنوانه. لفعل شيئاً. أيَّ شيء. يدلّ على الرغبة في لقاء آخر. روضة! روضة! روضة! يا لكِ من عقلانية باردة! الرجل أحبَّك، منذ النظرة الأولى، كما أحببتِهِ أنتِ منذ. . . منذ. . . منذ أن أحببته. ألم تري الحمرة تلبس الوجنتين الشاحبتين؟ ألم تَرَيْ الفم الشبق يوشك أن يبتسم؟ هل كَذبتك غريزتُك من قبلُ حتَّى تفعلَ هذه المرّة؟ حسناً! حسناً! ها أنذا أستسلم. وأعلن لنفسي أني أحبُّ هذا الرجل. وأعلن لنفسي أنه يحبّني.

القرار

على نحو خفيّ غير ملموس، ثانيةً فثانيةً، دقيقةً فدقيقةً، تبلور القرار. كان مُجرّد غيمة عابرة. مُجرّد فقاعة طافية. مجرد فكرة طارئة. إلاَّ أن الغيمة تجمّدت. والفقاعة رفضت أن تنفجر. والفكرة استمرأت البقاء. القرار: لن أتركه يفلت من يدي. لن أسمح له بالفرار كما سمحتُ له في المرّة الأولى. سوف أتجاهل علمي القاطع أنَّ القدر لن يسمح لي بأن أعرف السعادة معه. لا مهرب من القرار. لا بُدّ من أن أُنهي هذا التقمّصَ. هذا الجنونَ اليومي. هذا العذابَ

المقيم. بقرارٍ لا رجعة فيه: سوف يكون هذا الرجل لي.
سوف يكون رجلي الرابع. والأخير.

برهان

كان برهان حُبّي الأوّل. رجلي الأوّل. هل كان برهان رجلاً؟ كان فتى في التاسعة عشرة، وكنتُ مراهقة في السادسة عشرة. كان يسكن في حيّنا. وكانت أمّه صديقة أمّي. وكانت فرص اللقاء ميسورة. كنت مراهقة. وكان فتى وسيماً. وتحولت إلى امرأة معه. امرأته الأولى. وتحوّل إلى رجل معي. رجلي الأوّل. وماذا تعرف امرأة السادسة عشرة ورجل التاسعة عشرة عن الحُبّ؟ كل شيء! الحديث الطويل الجميل عن الزواج. وعن المستقبل. وعن الأولاد. أيامَها، ماذا كنّا نعرف عن الحياة؟ وعن لقمة الخبز المغموسة في الدم؟ وعن أجرة الشقّة؟ وعن مصروف البيت؟ وعن تربية الأطفال؟ كان برهان وسيماً كتمثال إغريقي. وكنت مراهقة حالمة. وكان بيننا حبّ مجنون. وذات ليلة، جاء الحلم. بالتفاصيل الصغيرة الدقيقة. قطرات الدماء. الكدمات في السيّارة المهشّمة. وأفقت أبكي. قلتُ لأمّي إن برهان سيموت. أمي التي كانت تعرف كم أحبّه طلبت مني أن أستعيذ باللّه من الشيطان الرجيم. أضغاث أحلام. استعذتُ

باللّه. وبعد يومين، يومين اثنين من الحلم، وقعت الحادثة. اصطدمت سيّارة الأجرة، التي كان يستقلُّها في طريقه إلى موعدنا في السينما، بحافلة. أو اصطدمت الحافلة بها. حادث مروري عاديّ انتهى في ثوان. بسيّارة مهشّمة، ودماء. وبرهان الذي ذهب ولم يعد. تمثالي الإغريقي الوسيم. حبّي الأول. رجلي الأول. جاء، وذهب. وتركني أنتحب في أحضان أمّي. التي كانت تقبّلني وتردّد: «سيجيء غيره، سيجيء نصيبك. لا تبكي. لا تبكي».

منصف

الطفلة توشك أن تقدم. ودورة المخاض تشتّد. وزوجي يقول ببساطة: «جاء اليومَ إلى المتجر رجل سأل عنك». في البداية لم تعنِ الجملة شيئاً. ثم انفجر المعنى كقنبلة في رأسي. انتظرت أن يكمل زوجي الحديث، ولكنه لم يفعل. كان قَلِقاً عليّ. طمأنتُه أنني بخير. قلتُ: «مَن هو الرجل الذي سأل عني؟». ردّ منصف: «لا أعرف اسمه. بدا من لهجته أنّه من الخليج. قال إنك...». لم أسمع بقيّة الجملة. أخذت وتيرة المخاض تتسارع. وبدأ الألم يتسلّل من الرحم إلى كل مكان في الجسد. وراح منصف يذرع الغرفة. ثم ذهب، وعاد بالممرضة التي طمأنته. وقالت إن

الطبيب سوف يصل بعد دقائق. وإن الولادة ستكون طبيعية وسهلة. فجأة، وجدتُ نفسي أفكّر في يعقوب العريان. أيُّ جنون وقح هذا؟! أن أكون قرب زوجي الطيّب. الذي يجفّف جبيني. ويمسك يدي. ويهمس في أذني. وينتظر طفلته. بينما أنا أفكّر في رجل آخر. لا أكاد أعرف شيئاً عنه. سوى أنه تقمّصني. وأنني قرّرت أن أحبّه. برغم الطفلة التي توشك أن تطلّ على هذا العالم العجيب. وبرغم زوجي الطيّب الذي لن يعرف شيئاً. وبرغم أُمّي التي ستعرف كل شيء، وتفهم كل شيء. أيُّ مسرحية سريالية هذه؟!

الكتب

حين مات برهان وجدت عزائي الوحيد في الكتب. اكتشفت هذا العالَمَ الساحر الذي يعيش بموازاة عالمنا. يلامسه أحياناً. ويحتلُّه أحياناً. ويغيب عنه أحياناً. وعندما دخلتُ كليّة الآداب أطبق عليَّ هذا العالمُ الساحر. أصبح حياتي الثانية. الموازية. الملجأ الآمن من عالم غير آمن. الحبَّ بلا خوف. والموتَ بلا ألم. بساطَ الريح الذي يجتاز الزمان والمكان. أدخل كتاباً، وأمشي في قصر كيلوباترا. أفتح كتاباً ثانياً، وأعدُّ جواري هارون الرشيد. أمتطي صهوة كتاب ثالث إلى الحمراء. الكتب! الكتب المسمومة. التي

قادتني إلى رواية «النوم مع السراب». وإلى مؤلّفها المسموم.

هديل

كان اسم الطفلة جاهزاً: هديل. وملأتِ الطفلةُ حياتي كلّها. تقريباً. بروتينها اليوميّ الجميل. روتينها الذي لا ينتهي. الرضاعة. تغيير الحفائظ. الحمّام. البكاء. اليقظة. النوم. البكاء. الرضاعة. تغيير الحفائظ. الدورة الأبدية/ الأزلية التي لا تتغيّر إلاّ في التفاصيل. ومنصف يكاد يُجَنُّ فرحاً بهديل. التي جاءت وهو في السابعة والخمسين. بعد أن فقد الأمل في الزواج. وفي الذريّة. الذريّة! يا لهذا التعبير الحلو. الفصيح. الدارج. القديم. الجديد. الذريّة. امتداد الذات. تحوّلها إلى أولاد. يبقون هنا بعد أن نرحل نحن. يحملون أسماءنا. وملامحنا. الاستنساخ الذي اكتشفه الإنسان البدائي قبل العلماء المعاصرين بآلاف السنين. وهْم الخلود. ومنصف الطيّب يرى نفسه في هديل. يرى وجهه في وجهها. ويعرف أنه لن يغيب حين يغيب. سوف يبقى في قسَماتها العذبة. منصف يتنكر لميراث عربي طويل في تربية الأطفال. ميراث ينصّ على أن دور الأب يقتصر على دفع المال. والسؤال الروتيني بين الحين والحين. والثواب والعقاب في مرحلة لاحقة. منصف يشاركني تربية هديل.

مشاركةً تامّة. يغيّر الحفائظ. ينوب عني في الحمّام. يهدهدها حتى تنام. يسير بها حين تبكي. والطفلة تملأ حياتي كلّها. باستثناء ذلك الركن. الذي يكبر ويكبر. الركن الذي يسكنه رجل غريب. جاء من منطقة غريبة. يسبقه كتاب غريب. جاء يتقمّص الزوجة الأم. كما تقمّص الزوجةَ الحامل. أيُّ مسرحية عبثية هذه؟ أيُّ مسرحية كانت ستُسعد هادي لو مثّل فيها جميع الأدوار؟

هادي

هادي. الأربعيني. البركاني. الوسيم. المجنون. معبود النساء. أشهر ممثّل مسرحي في البلاد. هادي الذي رأيته ذات ليلة. وعشقته من بعد. من كرسيّ في أقصى الصالة. من كرسي مظلم في القاعة المظلمة. وكان هو يشعّ. على المسرح المشتعل بالأضواء. لا يشعر بالكرسي المظلم. ولا بالعاشقة الجديدة. مجرّد وجه بين آلاف الوجوه. مُجرّد جسد بين آلاف الأجساد. مُجرّد طالبة جامعية. معجبة. تريد توقيعاً. أو صورة. أو مغامرة عابرة. فراشة اجتذبها الضوء الساطع. قاطعني النوم تلك الليلة. كنتُ أفكّر في هادي. وحدث الشيء نفسه في الليلة التالية. وفي الليلة الثالثة جاء الحلم. بتفاصيله المثيرة. هادي يقبّلني. طعم القبلة يحرق

فمي. ويضمّني. وضمّته تؤلم أضلاعي. في الصباح قلتُ لأمّي: «أنا أحبّ هادي. وسوف نتزوّج». أمّي التي تعتقد أني ورثت من عهود سحيقة ميراثاً من السحر والكهانة لا تستغرب. تتنهّد، وتقول: «إن كان من نصيبك فسوف تتزوجينه. أرجو ألاّ يكون من نصيبك». قلت: «لماذا؟». قالت: «روضة! ألا تعرفين؟ كلُّ الناس يعرفون». قلت: «تقصدين النساء والحياة البوهيمية؟». قالت أمّي: «وإدمان الخمر. والأشياء الأخرى». قلت: «سوف يكون لي وحدي. لن تشاركني فيه امرأة أخرى. لن يشاركني فيه شيء آخر». تنهّدت أمّي من جديد، وقالت: «روضة! إزالة الجبال وتجفيف البحار وتحويل النحاس إلى ذهب أسهل بكثير من تغيير سلوك رجل واحد». قلت: «أمي! أصبحتِ فيلسوفة!». قالت بإصرار: «أرجو ألاّ يكون من نصيبك». ومرّت أسابيع. وجاءَ، ذات صباح، إلى الكلية. يُلقي محاضرةً على طلاب السنة النهائية وطالباتها. عن علاقة الأدب بالتمثيل. لا أذكر ما قال. كنت مشغولة بإلتهام ملامحه. وفي نصف المحاضرة لاحظني. التقت عيوننا. صمت قليلاً. وعاد، مضطرباً، إلى الحديث. إلاّ أن عينيه لم تفارقا عينَيْ. كانتا تجوبان القاعة الصغيرة وتعودان إليّ. بعد المحاضرة اقترب مني وسألني: «ما اسمك؟». قلتُ:

«روضة». قال: «روضة! أنا أحبُّك!». قلت: «هادي! وأنا أحبُّك!». قصة حب مسرحية. عاصفة. خاطفة. مرعدة. مبرقة. وكان يوم تخرّجي يوم الزواج. كانت أمي تبتسم. وتحاول أن تخفي دموعها. أمي المهزومة أمام النصيب. وكنتُ أنا أمرح بين السحب. وأتمشى بين النجوم. وألعب مع الشموس. كنتُ مليكة الكون. وكان أميري الجذّاب بقربي. وكان الحب شرساً. وفِعْل الحب أشدّ شراسة. كان في العلاقة الجسدية شيءٌ خطر. بركاني. شيطاني. ومرّت شهور النبيذ والورود. وانتهت النشوة. وعاد هادي إلى حياته القديمة. إلى النساءِ الأخريات. والأشياء الأخرى. «روضة! يجب أن تفهمي. أنا فنّان، والفنّان لا يستطيع أن يعيش في سجن». وأحاول أن أفهم. «روضة! يجب أن تتذكّري أني لم أتعوّد الحياة مع امرأة واحدة». وأحاول أن أتذكّر. «روضة! يجب أن تعرفي أني أختنق إذا لم يكن لي فضائي الخاصّ». وألاحظ أنه، بالفعل، يختنق. كان يتركني في منزلنا في العاصمة ويذهب إلى بيته الصغير على الشاطئ. ويقضي يوماً. أو أياماً. ويعودُ إليّ منهَكاً. يعاني الخمار والكآبة. وذات ليلة، عاد فجأة. وعجز عن فِعل الحُبّ. واستيقظ في داخله وحش أرعبني. وحش ضربني. وأوشك أن يقتلني. وحطّم أثاث المنزل. واختفى. ثم عاد هادي الذي أحببته.

يبكي مثل طفل مذنب. ويعتذر. ويقبّل الوجه الذي صفعه. والقَدمَ التي هوى عليها بحذائه. إلاّ أنني لم أغفر. ولم أقبل الاعتذار. قررت، تلك الليلةَ، أن هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أسمح فيها لرجل بالاعتداء عليّ. قررت أني سوف أكون الطرف الأقوى في هذه العلاقة، وفي أيّ علاقة تربطني بأيّ رجل. قرّرت، وقرّر القدر. وجاء الحلم. واضحاً كالعادة. مخيفاً كالعادة. جسد هادي البارد. الميّت. والأفعى التي تتسلّل بعد أن لدغته. أفقتُ أصرخ. قال هادي الذي صحا مذعوراً: «حبيبتي! ماذا حدث؟». قلت: «هادي! الأفعى! انتبه! سوف تلدغك!». ضحك. إلاّ أن ضحكته جاءت جافّة. مُتحشرجة. خالية من المرح. قال: «روضة! هل جُننتِ؟ أيّ أفعى؟!». قلت وأنا أبكي: «الأفعى ستقتلك!». وسمعتُ الضحكة الجافة من جديد. ونام. لكنني لم أنم. وبعدها بشهر. بأقل من شهر. عثر الجيران على هادي ميتاً في منزله على الشاطئ. وقربه حقنة الهيرويين. الجُرعة القاتلة. الأفعى القاتلة. وأصبحتُ أرملة. وأصبحت غنية. أملك ثروة بالمقاييس المحلية، لا بمقاييس النفطيين. ومنزلاً صغيراً على الشاطئ. منزلي الخاص. فضائي الذي لا يشاركني فيه أحد. الأرملة الجميلة. التي توشك أن تدخل عامها الثاني والعشرين. المرأة المستقلة.

المرأة المتحرّرة. المرأة التي لن تسمح لرجل بأن يكون سيّدها. أبداً! أبداً!.

التقمّص

يعقوب العريان يرفض أن يتركني. يرفض أن ينهي التقمّص. من لي بطارد الشياطين؟ يرفض أن يتخلى عني، دقيقةً واحدة. وفرص اللقاء تتضاءل مع كل يوم يمرّ. وعندما قررنا، منصف وأنا، أن نترك الفندق ونفتح متجراً كبيراً في قلب العاصمة، شعرت بأن فرص اللقاء ستنعدم. كان أملي الوحيد أن يعود إلى الفندق. ويراني. الآن، كيف سيراني؟ ومع احتدام اليأس زادت حدة التقمّص. هل أنا موشكة على دخول عالم الجنون الذي تركتُه، بلا أسف، مع هادي؟

اللقاء الثاني

بلا حلم يسبقه، دخل متجر الفندق. بمجرد أن رآني أشرقت ملامحه بالبهجة. لم يعد لديّ شكّ في أني لم أكن واهمة عندما تصوّرت أنه يحبُّني. حافظت، قدر طاقتي، على هدوئي الخارجي، إلاّ أنني كنت أفور من الداخل. قال أشياء لم أستمع إليها. وقلت أشياء لم أفكر في معناها. وبغتةً، استجمع شجاعته وطلب موعداً. كنت مستعدّة.

وافقت على الفور. وطردته من المتجر لأن موعد رضاعة هديل قد حان.

القرار

سوف أحبّه. وسوف يحبّني. وسوف أكون أنا الطرف المتحكم في العلاقة. الطرف السيّد. سوف أحدّد أنا الشروط. وسوف أرسم أنا الحدود. أنا، وحدي، التي ستقرّر متى يجيء ومتى يذهب. لن أقبل منه هدية. أيَّ هدية. لا أريد أن يخطر بباله، حتّى في ومضة سريعة، أنني واحدة من فتياته، من بنات «دار السرور». أنا التي سوف أعطيه الهدايا، حين أشاء. ولن أقول له إني أحبّه. القدَر الذي قتل برهان بمجرد أن أحببتُه، وقتل هادي بمجرّد أن شعرت بالسعادة معه، سيكون لنا بالمرصاد. وهذا الرجل الغريب النفطي لن يكون له أيّ خيار. سيقبل العلاقة كما أريدها أنا. ولن أسمح له بالدخول إلى فضائي. لن يكون من حقّه أن يتلصص على حياتي بعيداً عنه. حياتي مع أمّي وزوجي.

آسيا

أمّي. أختي. صديقتي. آسيا. من أين جاء اسمها؟ من الأسى؟ حمّالة الأسيّة. من قارة آسيا البائسة؟ المرأة التي

أشكُّ أنها عرفت يوماً واحداً من السعادة في حياتها. التي علمتني أن أخاف عاقبةَ الفرح. وأحذر التفاؤل. المرأة التي وُلِد طفلها الأوّل ميتاً. ومات طفلها الثاني في سن الثالثة بإلتهاب السحايا. وجئتُ أنا. وأصبحتُ وجودَها كلَّه. كان أبي خيالاً عابراً فوق دنيانا. وذات ليلة، وكنت في الرابعة، جاء الحلم. رأيت أبي ميّتاً. لم أفهم معنى الحلم وقتها. ظننتُ أن أبي كان نائماً. وبعد الحلم بأيام سقط ميّتاً بلا إنذار. ولم أفتقده. كان غائباً عن البيت معظم الوقت. وعندما يعود كان يجد سبباً لضرب أمّي، وضربي. أبي طاهر. الذي لم ألمح فيه ما يدلّ على طهر. أبي الذي قررت أن أمحوه من ذاكرتي نهائياً. ونجحت. ولولا صورتُه المعلَّقة في الجدار لوجدتُ صعوبة في تذكّر ملامحه. وعندما مات توقف الضرب، واستطاعت أمّي أن تتفرغ لي. أمّي الخيّاطة ذات الأصابع السحرية. التي تحوّل أيَّ قماش رخيص إلى فستان سندريلا. التي لم تجعلني، يوماً، أحسّ بالحاجة. استطاعت بدخلها البسيط أن تؤمّن لي كل ما أريد. كنت، دائماً، أكثر الطالبات أناقة. حتى المريول المدرسي البسيط الذي كانت أمي تفصّله لي كان يبدو وكأنه من صنع «إيف سانت لوران». عندما كبرت، بدأت أستغرب كيف استطاعت أمي أن توفر لي احتياجاتي. كنت أسألها، وكان الجواب

واحداً لا يتغيّر: «منصف يساعد. رجل كريم. مليء بالخير». منصف ابن خالتها. الذي خطبها. ولكنها فضّلت عليه أبي. طاهر الضارب. وآثر منصف ألاّ يتزوج. وبعد موت أبي طلب منصف من أمّي أن تتزوجه. إلاّ أنها رفضت. وآثر منصف ألاّ يتزوّج. منصف. ابن خالة أمي. زوجي!

منصف

منذ موت أبي، كان منصف جزءاً من حياتي اليومية. حلَّ محل الأب الذي رحل. الأب الذي لم يسرّه أن يموت الذَكَران وتبقى الأنثى الكبيرة والأنثى الصغيرة. منصف كان البديل المثالي. يأخذني إلى المدرسة. ويعيدني إلى البيت. ويشتري لي ثياب العيد. ويحضر لي الهدايا في كل مناسبة. منصف التاجر الصغير الذي شَاركَنا دخله الصغير. منصف الذي أجبرته ظروفُ الحياة على ترك المدرسة الثانوية. العصامي الذي تلقى كل ثقافته في السوق. منصف كان، دوماً، هناك. حين أُغمي عليّ يوم وفاة برهان كان منصف هو الذي حملني إلى السرير. وعندما أصبت بنوبة عصبية حين مات هادي كان منصف هو الذي أخذني إلى المستشفى. إلاّ أن شيئاً عجيباً حدث لمنصف حين أصبحتُ

أرملة. لم أعد أراه إلاّ نادراً. وعندما كنت أراه كان يتحاشى النظر إلى عينيّ. وعندما تلتقي عيوننا كان وجهه يحمرُّ بشدّة. ويهرب من المكان. ثم جاء الحلم.

الحلم

كان الحلم مفاجأة تامة. رفضت، في البداية، أن أصدّق. ثم جاء الحلم نفسه مرّةً ثانية. ورفضت، ثانيةً، أن أصدّق. ثم جاء مرّة ثالثة. وعرفت أن الأمر قد حُسِم. رأيتُ نفسي بثياب الزفاف، وقربي منصف يرتدي حُلّة رسمية لم أره يلبسها من قبل. رأيتُنا جالسَيْن على أريكة. وحولنا جمع من المدعوين. والمكان يضجُّ بالغناء. وأمي تضحك وترقص. تتكرر التفاصيل ذاتها. أيُّ قدَر غريب هذا الذي يوشك أن يزوِّجني رجلاً كان أمله الوحيد أن يتزوّج أمّي، رجلاً في سن أبي؟!

الزواج

قلتُ لأمي: «هل طلب منصف أن يتزوجني؟». تلجلجت آسيا وتلعثمت وصمتت. أعدتُ السؤال. قالت: «حماقة! قلت له أن ينسى الموضوع. الرجل في سنّ المرحوم». قلت: «أمّي! هل حدث بينك وبين منصف

شيء؟». قالت: «أعوذ باللّه! نشأنا معاً ولم أنظر إليه إلاّ نظرتي إلى أخ. ولهذا رفضت أن أتزوّجه مرتين». قلت: «ظننت أنك رفضت في المرة الأولى بسبب أبي، وفي المرّة الثانية بسببي». تنهدت آسيا، وقالت: «النصيب، يا روضة! لستُ من نصيب منصف». قلتُ: «وأنا؟ هل أنا من نصيب منصف؟». ضحكت آسيا، وقالت: «أنتِ الساحرة العرّافة! أخبريني!». قلتُ: «حلمتُ ثلاث مرّات أنني سأتزوجُه». قالت: «الرجل في سنّ أبيك». قلتُ: «هل يعترف النصيب بالأعمار؟». قالت: «لا يعترف النصيب بشيء». قلت: «أخبريه أني موافقة». عقدت الدهشةُ لسانَ أمّي، وأضفتُ: «إلاّ أنني سأتزوّجه بشروطي أنا». عندما استطاعت أمّي أن تتكلّم. قالت: «أيّ شروط؟».

الشروط

قلتُ لأمي: «يجب أن يعرف أنني لن أكرّر حياتي مع هادي. لو رفع صوته، رفع صوته مرّة واحدة، سوف أتركه. ويجب أن يعرف أني أريد فضاءً لنفسي. سوى يبقى منزل الشاطئ لي وحدي. أزوره وحدي. أبقى فيه وحدي. أنام فيه عندما أشاء وحدي. وسوف أبقى مستقلّة مالياً. سوف نشترك في عمل تجاري إذا شاء، ولكن سوف يفعل كلٌّ منا

بربحه ما يريد. وسوف نصرف على المنزل معاً، بالتساوي».
كانت أمّي تستمع وتهزّ رأسها موافقةً. قالت إنها سوف تبلغ منصف شروطي وتعود بالجواب. وعندما ذهبت أمي، جاءت الأسئلة. لماذا قبلتُ أن أتزوّج منصف؟ هل كان القبول شعوراً بالجميل نحو الإنسان الكريم الذي وقف مع أمّي ومعي؟ هل كنت بحاجة إلى الاستقرار بعد أن فقدت عاشقي المراهقَ وزوجي المخبول؟ هل هي عقدة من عقد فرويد الشهيرة؟ هل كنت أعلم أني لن أعثر، أبداً، على زوج مطيع مطواع، كمنصف؟ وجاءت الإجابات: لا! لا! لا! لا! لم أتخذ أنا القرار. القدَر هو الذي دفعني دفعاً إلى هذا الزواج. وقبلت قرار القدَر. ولكنني كنت مصممة على أن أطبع الزواج بطابعي، أصوغه على مثالي أنا، أكون سيدة العلاقة.

منصف

قبل منصف الشروط بسعادة بالغة. وقال إنه يضع العصمة في يدي. وتمّ الزواج. وجاءت ليلة الزفاف كما رأيتها في الحلم. رقصت أمّي التي لم أرها ترقص من قبل. وكانت سعيدة كما لم تكن سعيدة من قبل. وسرعان ما اتضح أن الحياة مع منصف كانت أسهل مما توقعت. تأقلمتُ مع الزوج الذي كان أباً بلا صعوبة. وفي السرير

كانت العلاقة مُرضية. لم تحمل زلازل برهان ولا براكين هادي، ولكنها لم تكن عالماً من الصقيع. وكان منصف الرقّةَ تتخذ شكل رجل. الأب والزوج والصديق والأخ والشريك في آن. عندما دخل يعقوب العريان حياتي قرّرت أني لن أسمح لدخوله بأن ينغّص حياتي مع منصف. لم أكن أعلم حين أمليتُ شروطي أني لن أحتاج إلى شيء في حياتي كلّها احتياجي إلى منزل بعيد صغير على الشاطئ لا يعرف منصف شيئاً عما يدور فيه. هل كان القدَر هو الذي أملى الشروط؟

الموعد الأول

كنتُ قاسيةً على يعقوب العريان. آه! كم كنت قاسية. في الدقيقة الأولة منعته من الحديث عن زوجي، وامتثل. من اللحظة الأولى كنت أنا السيّدة، وكان هو العبد. كان، مثلَ عصفورة قيس، يذوق بين يديَّ صنوفاً من العذاب. كان وجهه الشاحب يزداد شحوباً مع كل جرعة من القسوة. وفجأة، قرّرت أنه لا مُبرّر للمزيد من الإذلال. قررت أن المعركة انتهت في الجولة الأولى بانتصاري الساحق على المحامي الخليجي الثري. وفي نشوة الانتصار، قررت أن آخذه إلى منزل الشاطئ، وأن أمتلك جسده. جسد عبدي!

الليلة الأولى

لم يكن ليعقوب العريان رأي في التطورات. أخذته إلى منزلي. ومشيت معه على الشاطئ. وأمسكت بيده. واقتربت منه، وقبّلته. كان يستسلم لكل ما أفعله بسعادة طفل ماسوشي. طفلي/عبدي! وعندما سرت به إلى غرفة النوم الصغيرة كان خائفاً يرتعد كمراهق يرى جسد امرأة حقيقية للمرّة الأولى. وأخذت أنا زمام المبادرة. شعور مُسكر من السلطة يمتزج بشعور مُسكر من الحب. عبدي/حبيبي! دارت الدوائر. يعقوب العريان البدوي النفطي الذي يشتري الفتيات بالظروف والساعات أصبح الآن طريدتي. فيما بعد، قلت له:

ـ يا رجل! متى كانت آخر مرة...

قاطعني:

ـ منذ زمن بعيد، زمن بعيد جداً.

قلت:

ـ والعابرات؟

همس:

ـ روضة! أرجوك! أرجوك!

ابتسمتُ في الظلام، ودنوت منه، للمرة الثالثة.

الشروط

قبل أن يسافر يعقوب العريان، بحثت معه، بالتفصيل، نوع الحياة التي سيعيشها معي. لا! لم أبحث معه شيئاً. أبلغته أوامري. قلت إن عالمَيْنا يجب أن يظلا منفصلين. قلت له إنه يجب أن يكتفي بساعات تجيء كل بضعة شهور. قلت له إني لن أقبل منه أيَّ هدية، مهما كانت بسيطة. كان ينظر بحب واستغراب، ويتقبل ما أقول. قلت له إن اللقاء القادم سوف يكون بعد ثلاثة شهور، بالضبط. وقلت إن الاتصالات التليفونية أثناء غيابه ممنوعة منعاً باتاً. كان ينظر بحب واستغراب، ويتقبل ما أقول.

التقمص

سافر العبد البدويّ وبقيَتْ سيدتُه المتحرّرة تدير مملكتها التجارية، ومملكتها المنزلية، ومملكتها العاطفية. السيّدة؟! العبد؟! ما أعجب هذه الحياة! السيّدة التي فرضت على العبد ألاّ يعود إلاّ بعد ثلاثة شهور، بدأت تعدّ الأيام. السيّدة التي حرَّمت على العبد الاتصال التليفوني، بدأت تنظر إلى التليفون بحسرة. السيّدة التي قالت لعبدها إنها لن تقبل شيئاً منه، تحتفظ، الآن، بمنديله الذي نسيه في غرفة النوم الصغيرة، وتستنشق رائحتَه الغريبة.

رائحة يعقوب العريان

عندما دخل يعقوب العريان متجر الفندق، في المرّة الأولى، كانت تسير معه رائحة نفاذة. وعندما جاء، في المرّة الثانية، كانت الرائحة لا تزال تمشي معه. وفي السرير، اكتشفتُ أن الرائحة تتسرّب من كل مسام جسده. قلتُ:

ـ يا رجل! ما اسم العطر الذي تستعمله؟

ـ دهن العود.

ـ العود؟ هل هو ماركة فرنسية؟

ـ هو ماركة هندية.

ـ ماذا تعني؟ الهند تصنع العطور؟!

ـ ألم تسمعي بدهن العود من قبل؟

ـ لا.

ـ ألم تشمّيه من قبل؟

ـ لا.

ـ هناك، في آسيا، أشجار نادرة، من فصيلة نادرة، يُستخرج من قلبها حطب نادر هو حطب العود. في مرحلة لاحقة، وعبْر عملية لا أعرفُ تفاصيلها، يتحوّل الحطب إلى

سائل لزج يحمل رائحة قوية، هو دهن العود.

ـ منذ متى وأنت تستعمل دهن العود؟

ـ أعتقد أن المسألة عائلية. كان أبي يستعمله، وكان أبوه يستعمله. يخجلني أن أقول إني لم أعرف عطراً غيره. هل يزعجك؟

ـ على العكس. يفتح أمامي عوالمَ سحرية.

ـ سحرية؟!

ـ هذه رائحة قادمة من عصور سحيقة. من عصور السحرة والكُهّان. من عهود الطقوس والطبول. هذه رائحة لا مكان لها في زمن العطور الفرنسية. هذه رائحةُ ما قبل التاريخ.

سافر يعقوب ونسي منديله العابق بدهن العود. وضعته في مكان آمن تحت السرير، في غرفة نومي مع منصف، وأخذت أستنشقه مرّات عدةً في اليوم. وفي كل مرّة، أنتقل إلى عوالمَ غريبة مليئة بالجمال، والجواري، والقصور، والبخور، وشهريار الذي استسلم لشهرزاد، في الليلة الأولى، ولكنه ترك عطره جاسوساً أميناً ينام تحت سريرها، ويُحصي عليها حركاتها وسكناتها.

مقطع من أغنية كتبها وغنّاها
الفنان البلجيكي جاك بريل،
أغنية بدأت تتقمّصني

إذا قرّرتَ أن تذهب..

في هذا اليوم الصيفيّ..

فخذ معك الشمس..

وخُذِ الطيورَ التي كانت تحلّق في سماء الصيف...

حين كان حبُّنا جديداً..

وكانت قلوبنا تحلّق...

حين كان اليوم قصيراً..

وكانت الليلة طويلة...

حين وقف القمر..

يصغي إلى غناء الطيور الليلية...

آسيا

قلت لأمي: «أنا أحبّ رجلاً من الخليج». لم تُدهش أمي، ولم تستنكر. وأضفتُ: «لن يعرف منصف». استمرّت

أمي تستمعُ إليّ صامتة. قلت: «لن أقابله إلاّ مرّة كل بضعة شهور. لن تتأثر حياتي مع هديل ومنصف». ظلت صامتة. قلت: «أمّي! قولي شيئاً!». قالت: «هل حلمت به قبل أن يجيء؟». قلت: «نعم. حلمت به قبل أن أراه». قالت: «يبدو لي أن العلاقة جزء من نصيبك». قلتُ: «وهذا ما يبدو لي». قالت: «لا مفرّ من النصيب. متى أراه؟». نظرت إليها بدهشة، وعجزت عن الرد.

الذريّة

ما لم أقله ليعقوب العريان، وما عرفَتْه أمّي من دون أن أقوله، هو أنني لن أحمل إلى زوجي أطفالاً من إنتاج رجل آخر. يمكن أن أخون زوجي... آه! هل من الضروري استخدام كلمة ميتافيزيقية كالخيانة؟ يمكن أن تكون لي علاقة مع رجل آخر، ولكني لن أسمح بتحوّل العلاقة إلى ذُرّية. سوف تبقى الذُرّية ذرّية منصف. وهمُ الخلود سوف يبقى مُلك منصف. أما عبدي النفطي الشاحب الحزين فلن يملك سوى الساعات القليلة التي أجود بها عليه حين أشاء أنا، ولن تتحوّل أيُّ ثانية من هذه الساعات إلى مشروع طفل، أو مشروع طفلة.

البدو

كم أكره هؤلاء البدوَ الذين أفاقوا من سبات العصور ليجدوا أنفسهم أصحاب ثروات أسطورية، حوّلوها إلى ساعات ذهبية، وظروف منتفخة بالدولارت، وشهوات باهظة الثمن. كم أتمنّى لو امتلكت قنبلة ذرّية تبيدهم، واحداً واحداً. تبيد تلك النظرات التي لا تحمل سوى الازدراء للآخرين الفقراء. تُبيد تلك الحسابات السريّة التي نمت وترعرعت في أحضان الفساد. تُبيد ذلك الاستعلاء الذي تحميه الصواريخ الأميركية. وماذا أفعل الآن وأنا أحبّ واحداً منهم؟! ماذا أفعل؟! وما أغرب هذا البدويّ! هذا الرجل الحليق الحزين الشاحب الذي يتطيّب بدهن العود ويدير عمله بالمراسلات الالكترونية. الذي يقرأ الكتب ويؤلّف الروايات. هذا الرجل الرقيق الناعم الخجول. كم أتمنّى لو لم يكن بدويّاً.

يعقوب العريان

عندما عاد بعد ثلاثة شهور، لا تنقص يوماً ولا تزيد يوماً، كنت في سيّارتي أنتظر خروجه من قاعة المطار. وقفت أمامه، وفتحت باب السيارة، وجلس قربي. كانت

الفرحة الممزوجة بالدهشة على ملامحه تغني عن ألف كلمة.
ما أن ابتعدنا عن العاصمة، حتَّى أوقفتُ السيّارة في منحنى جانبي، واقتربت منه، وأخذت أقبّله بنهم أدهشني أكثر مما أدهشه. قال:

ـ روضة! انتبهي! قد يرانا أحد.

ـ لا يهمّني.

ـ هناك سيارات كثيرة تمرّ.

ـ لا يهمّني.

ـ روضة! أرجوك!

ـ يا لكَ من جبان. أين شجاعة البدو المشهورة؟

عندما وصلنا منزلي الصغير كانت لهفتي لا تعرف الصبر. كان مذهولاً وهو يراني أهاجمه بعنفِ طفلٍ رأى لعبة جديدة مثيرة. فيما بعد، سألني:

ـ روضة! هل اشتقتِ إليّ؟

ـ لا تسأل أسئلة سخيفة، يا رجل!

ـ من الواضح أنكِ اشتقت إليّ.

ـ لن أعلّق على تعليقاتك السخيفة، يا رجل!

ـ أحضرت لك زجاجة من دهن العود.

ـ تعرف القاعدة، يا رجل! لن أقبل منك شيئاً.

ـ ولا زجاجة صغيرة من دهن العود؟

ـ ولا قطرة.

ـ أليس هذا موقفاً متطرفاً؟

ـ التطرّف القائم على مبدأ ليس عيباً.

ـ سبقك إلى قول شيء كهذا سياسي أمريكي.

ـ مِن أسيادك؟

ـ مِن أسيادي؟!

ـ ألم تقل لي إنك من رعايا العمّ سام في لقائنا الأول؟

ـ روضة! ألا تعرفين الفرق بين المزح والجُد؟

ـ إذاً، فأنت لست من رعايا العم سام؟

ـ أنا من رعايا روضة.

ـ هذا من حسن حظك، يا رجل!

ـ موافق على طول الخط، يا امرأة!

كان يعقوب العريان أخبث مما تصوّرت. عندما سافر نسي منديلاً آخر. إلاّ أن المنديل كان يفوح بروائح زجاجة كاملة من دهن العود؛ الزجاجة التي رفضت قبولها. البدويّ الماكر! لا ينبغي لعربيّة متحرّرة أن تستهين بلؤم عبدها البدوي المتخلّف.

آسيا

قالت لي أمّي: «روضة! لم أرك بهذه السعادة من قبل. لا مع برهان ولا مع هادي». قلتُ بقلق: «هل الأمر بهذا الوضوح؟». قالت: «أنا أراه بكل سهولة». قلتُ: «أمي! لا تنسي أني ورثت السحر والكهانة منك». ابتسمت آسيا، وقالت: «ومتى أراه؟». قلتُ: «عندما يجيء في المرّة القادمة». قالت: «ومتى سيجيء؟». قلت: «بعد أربعة شهور، لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً». تنهدت أمي، ولم تقل شيئاً.

منصف

قال لي زوجي: «روضة! تبدين سعيدة جداً هذه الأيام. تغنّين وتضحكين طوال الوقت. ما الحكاية؟». ضممتُه بقوة، وقبّلتُه بحرارة، وتجاهلت سؤاله.

المقطع الثاني من الأغنية
التي تتقمّصني

ولكن. . . إذا بقيت. .

فسوف أصنع لك يوماً. .

لا يشبهه يومٌ قبله. .

ولن يشبهه يومٌ بعده. . .

سوف نبحر على الشمس. .

ونمتطي المطر. .

ونتكلَّم مع الأشجار. .

ونمجّد الريح. .

وعندها. . . إذا مضيت. .

فسوف أتفهم. .

ولكن دع لي قليلاً من الحب. . .

أُطبق عليه يديّ. . .

يعقوب العريان

يجيء في موعده. لا يتأخّر ولا يتقدّم. كساعته

«الرولكس» (ليست ذهبية لحسن الحظ!). وفِعْل الحب يزداد سخونة كلَّ مرّة. تهبّ الأعاصير القديمة التي دفنتها مع برهان، وتضرب الزلازل القديمة التي أخذها هادي معه. وهو، بوجهه الشاحب، بعينيه الحزينتين، بفمه الشبق، يتدفّق حبّاً. يصرّ على أن أقول له «أحبك!». ولكني أرفض. يصرّ على أن أناديه «حبيبي!». ولكني أمانع. يعقوب العريان يجد صعوبة في فهم الخطة التي رسمتها لتضليل القدَر. ربّما لأنني لم أخبره بتجربتي الغريبة مع الموت. الموت الذي اختطف شقيقي وهو جنين. واختطف الشقيق الآخر وهو طفل. وأخذ أبي وأنا طفلة. وأخذ رجلي الأول وأنا مراهقة. وأخذ رجلي الثاني وأنا صبيّة. يعقوب العريان يجد صعوبة في فهم طبيعة السعادة. السعادة لا تجيء إلاّ في قطرات صغيرة جداً. بمجرد أن تمتلئ الكأس بالقطرات يضرب القدر ضربته. يعقوب العريان يجهل ما يعرفه كل الأشياخ وكل العجائز في أمتنا العربية المحرومة من السعادة. يعرف أشياخُ العرب عاقبة الضحك، ولهذا يردّدون مع الضحك: «اللّهُمَّ اجعله خيراً!». وتعرف عجائز العرب مصير الفرح، ولهذا يرددن مع الفرح: «اللّهُمَّ اجعله خيراً!». يعقوب العريان البدوي لا يفهم فلسفة البدو رغم أنه ألّف رواية عن زعيم بدوي شاب.

«القطرة الأولى»
رواية من تأليف يعقوب العريان

قلت ليعقوب العريان:

ـ يا رجل! لماذا فكّر المحامي الثريّ في كتابة رواية؟

ـ لأنه يجد صعوبة في التعبير عن مشاعره من خلال الكلام. ألم تلاحظي ذلك؟

ـ لم أسمعك تتكلم إلاً معي.

ـ حين يتعلّق الأمر بمشاعري الحقيقية، مشاعري الخفية، أجد أن الكتابة أسهل من الكلام.

ـ لنبدأ من البداية. لماذا كتبت «القطرة الأولى»؟ ماذا كنت تريد أن تقول؟

ـ ألم تستنتجي؟

ـ خروج الابن من عباءة الأب؟

ـ تماماً.

ـ زعم فرويد أن الرجل لا يصبح رجلاً إلاً إذا مات أبوه.

ـ لم يكن الأمر بهذه السهولة.

ـ ولكنك نجحت في النهاية. لم تَعُد مُجرّد جزء من أبيك.

ـ روضة! أصبحتُ مُجرّد جزء منك.

ـ هل كان أبوك شخصية طاغية؟

ـ على العكس. كان شخصيّة متحضّرة رقيقة. وكان يتمتع بشعبية كبيرة مع الجميع. ما أصعب أن تكون ابناً لرجل محبوب.

ـ المقارنة؟

ـ لا يودّ ابن أن يقول الناس إنّه أصبح أفضل من أبيه. ولا يودّ ابن أن يذكّره الناس، طوال الوقت، بأنه لن يصبح مثل أبيه.

ـ والمَخرج؟

ـ لا يوجد مَخرج.

ـ ولكنَّ بطل الرواية...

ـ نحن نصنع في رواياتنا ما لا نستطيع أن نصنعه في حياتنا. لو تمكّن كلّ روائي من أن يفعل في حياته ما يريد لما اكتظّت المكتبات بالروايات. يخطئ الذين يعتقدون أن

الرواية سيرة شخصية. الشعر هو حياتنا، أمّا الرواية فهي حياتنا كما نتمنّى أن تكون.

ـ تعني أنك لم تستطع...

ـ روضة! ألن ينتهي هذا الامتحان النقدي؟

ـ حدّثني، الآن، عن حياتك الحقيقية. عن طفولتك.

ـ كانت طفولتي مؤلمة بعض الشيء. ماتت أُمّي وأنا بعد...

ـ وأنت لم تشبع من حليبها. ما زلت تتعطّش إلى «القطرة الأولى» من حليبها.

ـ روضة! اتركي فرويد في قبره.

ـ حدّثني عن المحاماة.

ـ في وقت آخر، ربّما.

ـ والآن؟

ـ الآن، غنّي!

«زمان الصمت»

خلال أسابيعي الأولى مع هادي، قبل أن يستسلم للشياطين التي قتلته، زار الفنان طلال مدّاح البلاد. كان

هادي يعرفه، كما كان يعرف كلّ الفنّانين العرب المشهورين، والفنّانات. دعاه إلى العشاء في منزلنا مع مجموعة صغيرة من الأصدقاء. بعد العشاء، مع السحَر، رجا الحاضرون طلال مدّاح أن يغنّي. وكان كريماً جداً. أخذ عود هادي، الذي كان مطرباً هاوياً، وبدأ يغنّي. وأنصت الجميع، مسحورين. ثم جاءت أغنية احتلّت قلبي: «كتبت اسمك على صوتي». رجوت الفنّان الكبير أن يتوقّف، وعدتُ بالمسجّل. وغنّى طلال مدّاح، وأبدع. سافر، ولكن أغنيته ظلّت تصدح في مسجّلي، وفي روحي. كنتُ لا أملّ ترديدها. وعندما دخل يعقوب العريان متجر الفندق، لأول مرة، كنتُ أحاول إخفاء اضطرابي بترديدها بصوت خافت. وسرعان ما التصقت الأغنية بيعقوب العريان. تحوّلت إلى مُقدّمة موسيقية في أوّل اللقاء. وإلى موسيقى تصويرية أثناء اللقاء. وإلى خاتمة موسيقية قبل الوداع. «غنّي حبيبتي، غنّي!»، وكنتُ أغنّي. وكنتُ أتجنّب المقطع الأخير، بيتَ القصيد، الرحيل. كنتُ أخشى أن يسمع القدَر هذا المقطع ويأخذ حبيبي إلى زمان الصمت.

خاطرة

الحب الحقيقي لا يتّضح قبل فِعْل الحب، ولا خلال فِعْل الحب، ولكن بعد فِعْل الحب.

خاطرة ثانية

حياتي مع الآخرين واجب. حياتي معك مكافأة على إنجاز الواجب.

المقطع الثالث من الأغنية التي تتقمّصني

إذا قرّرتَ أن تذهب..

وأنا أعرف أنك قرّرت..

فقل للأرض..

أن تكّفَّ عن الدوران...

حتَّى تَجيء...

هذا إذا كُنتَ تنوي أن تعود...

وقُلْ لي: ما قيمة الحب..

إذا لم أحبَّك أنت..

وهل بوسعي أن أخبرك الآن..

وأنت تتأهّبُ للرحيل..

أني سأموت موتاً بطيئاً...

وأحيا مع اللقاء القادم؟.

آسيا

قالت لي أمّي: «ألا تتعبين من كتابة اسمه؟». لم أعلّق. واستمرّت: «لم أرك حزينة هذا الحزنَ من قبل. منذ أن سافر وأنت ترفضين أن تبتسمي». لم أعلّق. واستمرت: «ما دُمتِ تحبّينه إلى هذه الدرجة، فلماذا لا تتركين منصف وتتزوجينه؟». قلتُ: «هل تريدين أن أقتل رجلاً ثالثاً؟!».
تراجعت آسيا إلى الوراء مذعورة، وقالت: «برهان مات في حادثة. وهادي مات في حادثة». قلتُ بعناد: «أنا قتلتُ الأوّل. وأنا قتلتُ الثاني. ولا أريد أن أقتل الثالث». فجأة، انخرطتُ في بكاء صاخب. اقتربتْ أمّي تحتضنني، وتهمس: «لا تقولي هذا، يا روضة! نصيبك لا بدّ من أن يصيبك. لن يصيبنا إلاّ ما كتب اللّه لنا». بكينا معاً، طويلاً.

مُجرّد سؤال

هل الحياة والقدَر والحب والموت، مجرد مترادفات؟

منصف

كانت فكرة السفر إلى باريس غبيّة جداً. قال منصف، الذي لاحظ شرودي، إني في حاجة إلى إجازة قصيرة،

وألحّ. تركْنا هديل مع أمّي وسافرنا معاً إلى باريس.
اكتشفتُ، بمجرد وصولي، أن يعقوب العريان كان ينتظرني هناك. رأيته يطلّ عليّ من لوحة في اللوفْر. ورأيته يقرأ كتاباً في مكتبة ميتران. ورأيته يشرف على العالم من برج إيفْل. ورأيته يأكل في مطعم صغير في الحيّ اللاتيني. ورأيته مع السيّاح في الكونكورد. ورأيتُه بمفرده أمام ضريح نابليون. «روضة! هل هناك شيء يزعجك؟». سمعت هذا السؤال من منصف عشرين مرّة خلال أسبوع واحد. وكان ردّي لا يتغيّر: «أفكّر في هديل. أشتاق إلى هديل». وكان تعليقه لا يتغيّر: «سنحضرها معنا المرّةَ القادمة». لا! لن تكون هناك مرّة قادمة. تسلّل هذا البدوي الماكر، في ليلة ليلاء، من خيام الظلام إلى عاصمة النور، واحتلّها، ورفع عليها علَماً يحمل صورة جَمل، وأعلن أنّها جزء لا يتجزأ من مضارب البدو.

محاولة لإيضاح السؤال السابق

ألا تعني الحياةُ الاستسلامَ للقدر؟ وألا يعني الاستسلامُ للقدر الاستسلامَ للحب؟ وألا يعني الاستسلامُ للحُبّ الاستسلامَ للموت؟

مجرد سؤال

لماذا يستطيع الرجل أن يحب امرأتين، واحدة بقلبه، والثانية بعقله، ولا تستطيع المرأة أن تحبّ رجلين، أحدهما بإسم القدَر، والثاني بإسم جسدها؟

«سنوات الإعصار»
رواية من تأليف يعقوب العريان

سألته:

ـ هل البطل في الرواية يعقوب العريان كما كان يتمنّى أن يكون؟ الشهيد الذي يموت برصاص الديكتاتور؟

ـ بطل الرواية الحقيقي ليس الشهيد. بطلُها الزعيم الوحش. هل تريدين أن تعرفي لماذا كتبتُ الرواية؟

ـ بالتأكيد.

ـ كتبتُها لأن الزعيم الوحش كان صديقي. بوسعك أن تقولي إنه كان صديقاً حميماً في فترة من الفترات. قبل أن يصبح زعيماً، وقبل أن يصبح وحشاً. بوسعك أن تعتبري الرواية رسالةً مُوجَّهة إليه، رسالة تحمل خيبة الأمل الفاجعة في الصديق الذي كان إنساناً.

ـ لم أكن أعرف أنك تشتغل بالسياسة وتتعامل مع الزعماء.

ـ لم أشتغل بالسياسة ولم أتعامل مع زعماء. تعرّفتُ إليه بالمصادفة منذ زمن بعيد. كنت أدرس في القاهرة وقَدِم إليها لاجئاً سياسياً. التحق بكليّة الحقوق، وعرّفني إليه أحد الأصدقاء. وسرعان ما توثقت العلاقة بيني وبين اللاجئ السياسي، المناضل الشاب المثالي. كنا نلتقي كلَّ أسبوع، وأحياناً كلَّ يوم. كان قليل الكلام، ولكنه عندما يتكلّم يصغي إليه الجميع. لم يكن يتكلم إلاَّ عن الأمّة العربيّة. عن الحرية التي تستحقها الأمّة العريقة. وعن الوحدة التي ستحقّقها الأمّة بمجرد قدوم الحرية. وعن مجتمع المساواة والعدل والكرامة. هل تعرفين عمّن أتحدّث؟

ـ لا.

ـ حسناً! افترقنا، ودارت دورة الأيام. ووصل صديقي اللاجئ السياسي إلى ذروة الحكم في بلاده على ظهر دبابة. لم تجئ الحرية، ولم تجئ المساواة. جاء الحكم الشمولي، وحمامات الدم، والغازات القاتلة...

ـ آه! فهمت الآن! فهمت الآن! الرواية دعاية من دعايات البدو المغرضة ضد زعيم قومي بطل.

ـ روضة! حين كتبتُ الرواية كانت علاقةُ بطلك القومي العظيم بالبدو علاقةَ تحالف تام. مُنِع الكتاب في المنطقة بسبب إساءته. . . .

ـ من الأفضل أن نغيّر الموضوع.

ـ روضة! أحياناً، أعتقد أنك لا تطيقين تحمُّل الحقيقة.

ـ الحقيقة؟! هل تستطيع أنت أن تتحمّل الحقيقة؟! الحقيقة أنَّ في أعماق كل واحدٍ منّا وحشاً ينتظر الفرصة لينطلق. . .

ـ روضة!

ـ ويقتل ويقتل. يبدأ بقتل أقرب الناس إليه. . .

ـ روضة!

ـ ثم يبدأ في قتل الغرباء، ثم. . .

ـ اسكتي!

جاء صوته حاسماً قاطعاً على نحو أذهلني. وصمَتُّ على الفور.

طرزان

قلت ليعقوب العريان ونحن على السرير:

ـ أتمنّى، أحياناً، لو كُنتَ أكثر عُدوانية معي.

ابتسم، وقال:

ـ لا تحتاج الغابة إلى أكثر من طرزان واحد.

قلت:

ـ أعني أن الرجل الحقيقي...

قاطعني:

ـ لا ضرورة له في وجود امرأة تمثّل دَور الرجل الحقيقي.

طرزان أنا؟! الرجل الحقيقي أنا؟! ضربتان تحت الحزام. هذا البدوي اللئيم! تُرى هل أدرك، من اللحظة الأولى، أني قرّرت أن أكون السيّدة وأن يكون هو العبد؟ وهل كنتُ أمثّل دور الرجل، ويمثّل دور المرأة؟ ومن الذي خدع الآخر؟ من الذي إنتصر؟ لا ينبغي لأحد أن يستهين بخبث البدو الذين أفاقوا من النوم ليجدوا سيارات «الرولزرويس» في انتظارهم عند مدخل الكهف.

يعقوب العريان المحامي الثري

قلت ليعقوب العريان:

ـ طالما تساءلتُ إن كان ضميرُك يؤنّبُكَ في هذه المهنة؟

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد ما هو شعورك حين تدافع عن شخص تعلم أنّه مذنب؟

ـ أنا لا أتعامل مع قضايا جنائية. عملي كلُّه ينصبُّ على المعاملات التجارية.

ـ ألا يوجد مذنب وبريء في المعاملات التجارية؟

ـ يوجد طرف معه القانون، وطرف ضدّه القانون.

ـ وماذا عنك أنت؟

ـ مهمّتي أن أساعد القانون ضد الطرف الذي خرج عليه، وأن أساعد هذا الطرف ضدّ القانون.

ـ هذه سفسطة قانونية.

ـ ربّما.

ـ هل أنت ثري، كما قال لي موظف الاستقبال؟

ـ روضة! مرّت علينا فترة من الزمن كان يصعب خلالها على أيّ محام أن يظلّ فقيراً.

ـ وهل حاولت؟

ـ حاولت أن أرسي قواعد صحيحة للمحاماة. حاولت أن أجعلها مهنة تختلف عن مهنة السمسرة.

ـ مهنة أجمل وأفضل وأنبل؟

ـ لا يوجد جَمال أو فضل أو نُبل في المهن. هذه الصفات توجد أو لا توجد في نفوس الذين يمارسون المهن.

ـ وأصبحتَ ثريّاً رغمَ أنفك؟

ـ روضة! عندما بدأتُ العمل كان الناس يقصدونني لا ليشتروا نصائح قانونية ولكن ليشتروا شيئاً من النفوذ.

ـ لم تقل لي إنك صاحب نفوذ.

ـ نفوذ مستعار. نفوذ موروث. كان أبي يتمتع بشعبية كبيرة بين الحاكمين والمحكومين على حد سواء. وورثت نصيبي.

ـ وبدأت تبيع النفوذ؟

ـ لا. بدأت أدرِّس الناس طبيعة المهنة. على الراغبين في شراء النفوذ أن يذهبوا إلى السماسرة، تجّار النفوذ. أمّا أنا فلن أبيع شيئاً سوى الآراء القانونية. وسوف أبيعها بطريقة حضارية: مبلغ مُعيّن مقابل كل ساعة عمل، بصرف النظر عن قيمة العقد أو حجم المبلغ المختلَف عليه.

ـ لا يصبح المرء ثريّاً جدّاً بهذه الطريقة.

ـ يحصل على ما يسدُّ احتياجاته كلَّها، الأساسيةَ والكماليةَ، ويزيد.

ـ ألم تمرَّ بك تجاربُ طريفة خلال عملك القانوني؟

ـ روضة! هل لديك شهر أو شهران؟

ـ أكتفي بقصّة، أو قصّتين.

قضية يعقوب العريان المحامي الأولى

ـ حسناً، سوف أقصّ عليك قصّة قضيّتي الأولى، الاستفتاح، كما يقولون.

ـ هات!

ـ كان أوّل زبائني، أوّلهم، مقاولاً محلّياً صغيراً يعمل مع شركة أجنبية عملاقة. كلّفته الشركة بأعمال كثيرة بموجب تعميد كتابي. وكلّفته بأعمال أكثر بموجب تعميد شفوي.

ـ ووافق؟

ـ وافق ونفّذ الأعمال. ولكنَّ الشركة رفضت أن تدفع له مقابل الأعمال التي تمّت بلا تعميد مكتوب. وجاءني يطلب المساعدة. ألقيتُ عليه محاضرة قلتُ فيها: «هل أنت أبله؟ هل أنت مغفّل؟ هل أنت أحمق؟ كيف توافق على القيام بعمل من دون شيء مكتوب؟». كنتُ أحاضر، وكان يتمتم معتذراً، معرباً عن اعتقاده أن كلمة الشرف تساوي ألف عقد قانوني.

ـ ثم ماذا حدث؟

ـ اتصلتُ بالشركة، وتمكنت، من خلال الوعيد والتهديد، من استخلاص حقوق الزبون كاملةً. وأرسلت إليه فاتورة صغيرة.

ـ وماذا حدث؟

ـ لم أتلقَّ المبلغ. تلقيت منه رسالة تقول بالحرف الواحد: «هل أنت أبله؟ هل أنت مغفّل؟ هل أنت أحمق؟ كيف توافق على القيام بعمل من دون شيء مكتوب؟». كان درساً لم أنسه قط.

اندفعت أضحك، وأضحك، ويعقوب العريان، المحامي، ينظر إليّ بكثير من الحب، وقليل من العتاب. قمت، وقبّلتُه، وقلتُ:

ـ أنت عظيم أيُّها الأبلهُ المُغفّل الأحمق، عظيم جداً.

الصراع

هذا الصراع يوشك أن يقتلني. لا أقصد الصراع بين القلب والمبادئ. في عالمي لا توجد مبادئ إلاً في القلب. أقصد الصراع بين حياتي مع يعقوب العريان، وحياتي بدونه.

آسيا

قالت لي أمّي: «روضة! أنا أحبّ يعقوب. لا تتصوّري كم أحبُّ هذا الرجلَ». قلتُ: «أعتقد أنه يبادلك الشعور». قالت: «كم أتمنّى لو كان من نصيبك... أعني...». قاطعتها: «أعرف ما تعنين. تعنين لو كان من نصيبك أنت. ولِمَ لا؟ أخذتُ أنا الرجل الذي أحبَّك، فلماذا لا تأخذين أنت الرجل الذي أحبّني؟». تعانقنا، وضحكنا طويلاً.

الأرملة السوداء

لم يكن يعقوب العريان مُستعداً للمفاجأة. حين أخبرته أني حامل تلقّى النبأ كما لو كان تيّاراً كهربائياً صاعقاً. كان يريد أن يعرف مَن الأب. أخبرته في نبرات حاسمة غاضبة أني لن أبحث هذا الموضوع. هدّدته بقطع العلاقة لو عاد إلى السؤال. امتثل بولاء الكلب الوفيّ المتململ. أحسست أنه يعتقد، في قرارة نفسه، أن الطفلة القادمة، لم يكن لديّ أدنى شك في أنها طفلة، ستكون ابنته. من حقّه أن يعيش في الوهم. أمّا الحقيقة فلن يعرفها أبداً. الحقيقة يعرفها منصف الذي رقص وغنّى عندما أخبرته بالحمل. ورجع، على الفور، عاشقاً مراهقاً لا يستطيع مغادرة السرير. وأنا أتنقّل

من زوج لا يشبع، إلى حبيب لا يتعب. أنا، الأرملة السوداء! أنتظر أن يعجز الزوج فأقتله، أو أن يفشل العاشق فأقتله، كما قتلت هادي الوسيم، معبود النساء المجنون، حين عجز، ذات ليلة، عن إرضاء امرأة واحدة.

ثلاثة أسئلة حائرة

هل يحبني منصف أنا، وينام معي أنا، وينجب مني أنا، أم أنه يحبّ أمي، وينام معها، وينجب منها؟ وأنا، هل أنام مع يعقوب العريان، أم مع برهان، أم مع هادي، أم مع منصف، أم مع مزيج من هؤلاء جميعِهم، ومن جميع رجال العالم؟ وهل نحن، يعقوب العريان ومنصف وأنا، كلٌّ بطريقته الخاصة، نمارس الانتقام من قدَرنا الحزين؟

سؤال رابع حائر

عندما نرتكب السعادة، هل ننحدر إلى جريمة من جرائم الغدر، أم نرتقي إلى معجزة من معجزات الوفاء؟

قصص يعقوب العريان القصيرة

قلت ليعقوب العريان:

ـ يا رجل! ألم تكتب شيئاً سوى الروايات الثلاث؟

ـ كتبتُ عدداً من القصص القصيرة.

ـ وهل نشرتها؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ لأني لا أعتقد أنها تستحق النشر.

ـ هل يمكن أن أقرأها؟

ـ سوف أُحضر بعضها في المرة القادمة. بالمناسبة، متى ستكون المرّة القادمة؟

ـ بعد ثلاثة شهور.

ـ ألا يمكن أن أجيء قبل هذا الموعد؟

ـ أنت تعرف الجواب. لا يمكن!

زينب

قلتُ لمنصف: «إذا وضعتُ ولداً، فماذا تريد أن نسمّيه؟». قال: «اسم أبي، حسن، أو اسم أبيك، طاهر». قلتُ: «أفضّل حسن». قال: «إذاً، سنسميه حسن». قلتُ: «وإذا وضعتُ بنتاً؟» قال: «ما رأيك أنت؟». قلتُ: «أحبّ اسم زينب». صرخ منصف سعيداً «زينب! اسم جدتي!

سوف نسمّيها زينب». لم أقل لمنصف إن طفلته ستحمل اسم جدته، واسم أمّ رجل آخر، اسمه يعقوب العريان.

يعقوب العريان شاعراً
ورقة تركها، أو نسيها، قبل أن يسافر

يا امرأة!

عندما يلامسُ النسيمُ شفتيك...

يتحوّل إلى حقول من الزنابق الحمراء...

وحين يهبط شعرُك على وجهي..

أغوص في كل لؤلؤة سوداء..

تنام في كل محيط...

وعندما أمسّ نهديك..

أرتطمُ بأعمق أعماق الوجود..

وبكل أسراره...

يا امرأة!

عندما ترقصين..

تقف الأفلاك..

لتتعلّم منك فنَّ التناغم...

وعندما تغنّين..

تصل رسائل الأرض إلى ضمير السماء...

وعندما تدخّنين..

يتطاير أعداء العشق في الدُّخَان...

دعيني، هنا، قربك...

لا ترسليني من جديد..

إلى العالم الموبوء بالبشر..

لا تربطيني، مرّة أخرى،..

بالطاحونة التي تدور حول نفسها...

وهل يوجدُ سواك، يا امرأة؟

لا يوجد هناك شيء..

سوى الأنانية التي تعظ بإسم المبدأ...

سوى صراع الظالمين...

الذي لا يموت فيه سوى المظلومين..

سوى السراب..

الذي يطلق عليه كل ظامئ..

اسمه المفضّل...

وأنا متعبٌ جدّاً، يا امرأة!

أتعبني البحث عن زُمرّدةٍ لا تُوجَد...

أتعبني التنقيب في بطون الكتب..

عن حكمةٍ لا تكذب...

أتعبني الغوص في صدور الرجال..

ابتغاءَ صديقٍ لا يخون...

أنا متعبٌ... وجائعٌ... وظامئ...

في واحتكِ وَحْدها..

أجد الريّ السخيّ..

ومن نخلتك وَحْدها..

آكل الرُّطَب المكنون..

وعلى رمالك وحدها..

ألتقي بالسكينة الشاعرة.

«الرسالة»
قصة قصيرة جداً
بقلم يعقوب العريان

قال رئيس مجلس الإدارة لنفسه: «هذا هو يومُها الأوّل في العمل، ولا أتوقّع أن تكون الاستجابة بهذه السرعة».
كان رئيس مجلس الإدارة يفكّر في الموظّفة الحسناء التي عُيّنتْ حديثاً في مكتب الاستقبال قرب مدخل الشركة. جرَت العادة على أن تبتسم له الموظفة الجديدة، ثم تَضحك له، ثم تعطيه رسالة تقترح فيها اللقاء.

قال رئيس مجلس الإدارة لنفسه: «هذا هو أسبوعها الأوّل. لا بدّ أنها لم تستوعب تقاليد الوظيفة بعد».

قال رئيس مجلس الإدارة لنفسه: «مرّ أسبوعان. يبدو أن هذه الفتاة غبيّة، ولا مكان في الشركة للغبيّات». قرّر رئيس مجلس الإدارة أن ينتظر أسبوعاً ثالثاً قبل أن يتخذ القرار الحازم العادل الذي تتطلّبه مصلحة العمل.

استرخى رئيس مجلس الإدارة في مقعده الخلفيّ الوثير من السيارة الفخمة، وابتسم ابتسامة عريضة وهو يفتح الرسالة التي طال انتظارها. تلاشت الابتسامة وهو يقرأ في السطور

القليلة رجاءً من الموظفة الحسناء بإعطائها قرضاً تحتاج إليه لعلاج طفلتها المريضة.

مزّق رئيس مجلس الإدارة الرسالة، وكوّر أشلاءها، وفتح شبّاك السيّارة، وألقى بالرسالة على الرصيف، حيث تتجمّع كلُّ النفايات.

تعليق على القصة القصيرة جداً

قلتُ ليعقوب العريان:

ـ هذه ليست قصّة. هذه حادثة واقعية.

ـ بكلّ تأكيد.

ـ وأين وقعت؟

ـ تقع كلَّ يوم. في كل محلّ في العالم.

هديل

قلت لأمّي: «ماذا لو تحدثّت هديل عن يعقوب العريان أمام منصف؟». قالت آسيا: «لا تخافي. لن تتحدّث». قلتُ: «وكيف تعرفين؟». قالت: «الأطفال لا يتكلّمون عن شيء إلاّ إذا طلبنا منهم عدم الكلام عنه». قلتُ: «وإذا تكلّمت؟». قالت: «سأقول إن يعقوب صديقي أنا». قلتُ:

«أمي! أنت تشتهين الرجل، ولكني لن أتنازل عنه». ضمتني، وضممتُها، وضحكنا طويلاً. لم أكن أعرف، أنا الساحرة العرّافة، أن هذه ستكون المرّة الأخيرة التي أضحك فيها من الأعماق.

الحلم

صحوت مذعورةً. كنتُ أحلم بأني أشرب من قدح يفيضُ من جوانبه العسل.

المرض

دَخلتْ أمي غرفة النوم، فجأة، ولم أتمكّنْ من تجفيف دموعي. قالت، منزعجة: «روضة! ماذا حدث؟». لم أُجب. قالت: «الأمر يتعلّق بيعقوب، أليس كذلك؟». لم أُجب. قالت: «هل تخاصمتما؟». لم أجب. قالت: «هل افترقتما؟». لم أجب. وجدتُ نفسي، بغتةً، أبكي وتحوّل البكاء إلى نشيج هيستيري فقدتُ السيطرة عليه. عندما استطعتُ الكلام، خرجت الألفاظ شبيهةً بالهذيان: «ألم أقل لك، يا أمي؟ ألم أقل لك إني سوف أقتله؟ سوف أقتله! سوف أقتله!». قالت ووجهها يصفرّ: «ماذا حدث؟». جاءت كلماتي من مكان بعيد غريب: «وصل مُرهَقاً بعد سفرة

طويلة. مُرهقاً ومهموماً. وعندما نام بدأ يتكلم في منامه. للمرّة الأولى أسمعه يتكلم وهو نائم. قال أشياءَ عجيبة. أشياءَ غير مترابطة. لم أفهم من كل ما قاله سوى كلمتين... تكرّرتا... تكرّرتا... تكرّرتا...». جاء النشيج الهيستيري، مرّة ثانية، وأفلَتت الكلمتان: «سرطان الدم!».

الإخصائي

قلتُ للإخصائي الشهير: «جئتُ لأسألك عن قريب لي، لا يعرف أني أعرف أنه مريض». قال: «تفضلي! اسألي!». قلت: «هو مصاب بسرطان الدم». قال الإخصائي من دون أن تبدو عليه بادرة من بوادر التأثر: «لوكيميا. ماذا تريدين أن تعرفي؟». قلت: «كم... أعني... كم... أعني...». قاطعني: «كم سيعيش؟». قلت: «نعم». قال: «كيف أستطيع أن أجيب وأنا لم أره، ولم أفحصه؟». قلت: «لا يمكن أن تراه». قال: «متى اكتشف المرض؟». قلت: «لا أدري». قال: «هل تتوقعين مني أن...». قاطعته: «لا أتوقّع منك شيئاً، يا دكتور، سوى بعض المعلومات عن المرض». قال: «حسناً! هناك نوعان من سرطان الدم. النوع الحاد والنوع الكامن. النوع الحادّ يقتل في أسابيع، والنوع الكامن يظهر ثم يكمن، وقد يستمر كامناً مدة طويلة». قلت:

«ماذا تقصد بالمدة الطويلة؟». قال: «المسألة تختلف. خمس سنوات، ستّ سنوات، وأحياناً عشر». قلتُ: «وبعد ذلك؟». قال: «يتحوّل السرطان الكامن إلى سرطان حاد». قلتُ مذهولة: «يقتل في أسابيع؟!». قال: «خلال أسابيع من تحوّله إلى سرطان حاد». قلت: «والطبّ الحديث؟». قال: «لا توجد معجزات. في بعض الحالات يمكن نقل النخاع من إنسان آخر. إلاّ أن العلمية تتطّلب شروطاً كثيرة. ونسبة نجاحها، في أفضل الحالات، تقلّ عن خمسين في المئة». قلت: «إذاً، لا يمكننا أن نعرف...». سألني: «كم عمر قريبك؟». قلت: «نهاية العقد الرابع». قال: «وماذا عن صحته العامة؟». قلت: «ممتازة». قال: «وماذا عن نشاطه؟». قلت: «أكثر من ممتاز». قال: «إذاً، نستطيع أن نجزم بأنَّ السرطان الكامن لم يتحوّل إلى سرطان حادّ». قلت: «ومتى...». قاطعني: «الحياة والموت بيد اللّه. هل لديك أسئلة أخرى؟». قلت: «أشكرك. أجبت عن أسئلتي كلّها».

القرار

قرّرت أني لن أُظهر ليعقوب العريان، على أي نحو، وكائنة ما كانت الظروف، أني أعرف شيئاً عن مرضه.

وقررت ألاّ تتغيّر معاملتي له، على أيّ نحو، وكائنة ما كانت الظروف. وقرّرت أن أوطّن نفسي على فراق سيجيء في أيّ لحظة، ومن دون إنذار.

قصيدة نثرية
كتبتُها في رثاء يعقوب العريان
أثناء حياته

حزمتَ حقَائبك..

وتركتَ لي منديلاً مُزيَّناً بالعطر..

ولوَّحتَ لي..

ولوَّحتُ لك...

وحين عدتُ...

وجدتُ المنديل يقطرُ بالدماء...

●

حزمتَ حقائبكَ..

وتركت القَمر الذهبي أمانةً عندي..

ولوَّحتَ لي..

ولوَّحتُ لك...

وحين عدتُ...

وجدتُ القمر مُلطَّخاً بالدماء..

●

حزمتَ حقائبك..

ومنحتَني البَحرَ اللازوردي..

ولوّحتَ لي..

ولوّحتُ لك...

وحين عدتُ...

غرقتُ في بحرٍ من الدماء..

عطر يعقوب العريان المسموم

هناك أربعة مناديل. يحمل كلٌّ منها زجاجة كاملة من عطر يعقوب العريان. خبأتُها تحت أكوام من الثياب. في أماكنَ مختلفة من غرفة النوم. وظننت أني نجحت في كتم رائحتها. قال لي زوجي: «روضة! ما هذه الرائحة؟». قلت مُتظاهرة بالدهشة: «أيّ رائحة؟». قال: «هذه الرائحة الجميلة في الغرفة». قلت: «عطر جديد. أحضرته صديقة لي من

باريس». قال: «عطر جديد؟». قلت: «آخر صيحة!». قال: «ما اسمه؟». قلت: «دموع الصندل». قال: «الصندل؟ فعلاً! فعلاً! هذه رائحة الصندل». هذا البدوي الماكر المريض! سافر، وترك عطره المسموم يحتلّ الكون بأسره.

منصف

كان منصف مستغرقاً في لحظة من لحظات التأمّل الذاتي النادرة. رفع رأسه وقال: «روضة! هل تعرفين كم عمري؟». قلت: «المرأة التي لا تستطيع إبقاء زوجها شاباً إلى الأبد لا تستحق لقب امرأة». أضاء وجهُ منصف. لم أسأل نفسي عن اللقب الذي تستحقه امرأة لا تستطيع إبقاء حبيبها على قيد الحياة.

«المحاكمة»
قصة قصيرة بقلم يعقوب العريان

نظر رئيس هيئة المحكمة، مُتجهّماً، إلى المُتّهم، وسأله:

ـ اسمك؟

ردّ المتهم، مبتسماً:

ـ سعيد، يا صاحب الأسى.

ازداد وجه الرئيس تجهّماً، والتفت إلى عضو اليمين وعضو اليسار، وسألهما:

ـ سمعتما؟

ردّ العضوان بصوت واحد:

ـ سمعنا، يا صاحب الكآبة.

التفت الرئيس، مكشّراً، إلى المُتّهم، وسأله:

ـ اسم أبيك؟

قال المُتّهم، وهو يغالب الضحك:

ـ راضي، يا صاحب الوجع.

صرخ الرئيس في العضوين:

ـ سمعتما؟

أجابا:

ـ سمعنا، يا صاحب الترح.

قطّب الرئيس، والتفت إلى المُتّهم، وسأله:

ـ اسم جدّك؟

قال المُتّهم، وهو يضحك:

ـ الضحّاك، يا صاحب الوجوم.

هزَّ الرئيس رأسه، مستغرباً، ومسح دمعة كادت تفلتُ من عينه، وقال:

ـ اسمك، إذاً، سعيد راضي الضحّاك؟!

قال المُتّهم، وهو يقهقه:

ـ نعم، يا صاحب الحُزن.

قال الرئيس:

ـ وعنوانك؟

كتم المتهم ضحكه، واستعاد هدوءه، وأجاب:

ـ درب السعادة، حارة الفرح، يا صاحب الأسف.

تقلّصت ملامح الرئيس وهو يقول:

ـ ألا تعرف اسم الجمهورية التي حظيت بشرف المولد على ترابها الدامع؟

نجح المتهم في كبت موجة جديدة من الضحك، وردّ:

ـ جمهورية الأشجان الكبرى، يا صاحب الشجن.

صاح الرئيس:

ـ ألا تعرف اسم القائد الذي تدين له بالسمع والطاعة؟

ـ عابس السادس عشر، يا صاحب النكد.

وهنا تدخّل عضو اليمين:

ـ ألا تعرف المادة الأولى من دستور الجمهورية المكابد؟

ابتسم المتهم، وقال:

ـ أعرفها، يا صاحب الندامة: «لا يجوز لأي مواطن من رعايا جمهورية الأشجان الكبرى أن يحسّ بالسرور».

قال عضو اليمين، والدموع تحفر مجرى فوق خدّه:

ـ إذاً، لماذا قبلت أن يكون اسمك سعيد؟

ـ منحني أبي هذا الاسم. وكان اسم أبي راضي. وكان راضياً، يا صاحب التذمّر.

وهنا قال عضو اليسار، وهو يغالب عَبَراته:

ـ ولماذا لم تغيّر اسمك؟ الدستور المكابد يعطيك هذا الحقّ.

قال المتهم، وهو يقاوم موجة الضحك:

ـ لم أشعر بحاجة إلى تغيير اسمي. كنت، دوماً، سعيداً، ولا أزال، يا صاحب الانكسار.

قال الرئيس، وصوته لا يكاد يبين من الانفعال:

ـ ألا تحفظ المادة الأولى من قانون الجنايات الباكي؟

قال المُتّهم بين الضحكات:

ـ أحفظها، يا صاحب الغّم: «يعاقَب بالأشغال الشاقة المؤبدة المولولة كُلُّ من يُضبط مُتلبِّساً بالسعادة».

قال الرئيس وهو يزفر:

ـ إذاً، فأنت تعترف أمامنا بأنك خالفت الدستور المُكابد، والقانون الباكي؟

قال المُتّهم، وضحكته تتحوّل إلى شهيق:

ـ أعترف، يا صاحب التعاسة.

التفت الرئيس إلى العضوين، وسأل:

ـ ما رأيكما؟

ردّ العضوان بصوت واحد:

ـ العقوبة القُصوى، يا صاحب الشجى.

التفت رئيس هيئة المحكمة إلى المُتّهم، ومسح الدموع المتساقطة على وجنتيه، وقال:

ـ حكمت المحكمة على المتهم سعيد راضي الضحّاك الذي ضبطته المباحث مُتلبِّساً بالسعادة، بالأشغال الشاقة المؤبّدة المولولة.

ما أن سمع المُتّهم الحكم حتى سقط على الأرض يتلوى من الضحك. جاء حرّاس كالحون واقتادوا المُتّهم إلى خارج القاعة. ما أن غادروا القاعة، حتى انفجر الحرّاس في الضحك. في الداخل، كانت القاعة تضجّ بأصوات العويل.

تعليق على القصة القصيرة

قلت ليعقوب العريان:

ـ أين جرت هذه المحاكمة الغريبة؟

ـ في جمهورية الخوف.

ـ وأين تقع جمهورية الخوف؟

ـ العالم العربي كلُّه يقع داخل جمهورية الخوف.

المقطع الرابع من الأغنية التي تتقمّصني

ولكن إذا بقيتَ..

فسوف أصنع لك ليلة..

لا تشبهها ليلةٌ قبلها..

ولن تشبهها ليلةٌ بعدها...

سوف أُبحر على ابتسامتك..

وأمتطي لمساتك..

وأتكلّم مع عينيك...

اللتين أعشقهما...

ولكن إذا قرّرت أن تذهب..

فلن أبكي...

برغم رحيل كل شيء جميل...

مع قولك: «وداعاً!».

البئر التي يسكنها جنّي

بدأ الأمر بعبث وانتهى نهاية مفزعة. كنت أُرضع زينب، وكان يعقوب العريان يتأمّلني. عندما انتهيت من إرضاع الطفلة، سألني إن كان قد بقي شيء من الحليب. راودتني رغبة شقيّة في مداعبته. طلبت منه أن يقترب من ثديي الأيمن، وعندما اقترب أطلقتُ عليه رذاذاً من الحليب. دخلت قطرة فمه، وبدأ يتمتم، ويتساءل إذا كان بوسع القطرة أن تشفيه. طفلي الحبيب المريض! بلا تفكير، قرّبتُ فمه من ثديي، وبدأ يشرب. بداخلي، في بئر الحليب الخفيّة، انتفض جنّي لعين، وأخذ يغتصبني بعنف. شعرت بكل خليّة

من خلايا جسمي ترتعد في زوبعة من اللذة. بلا وعي، أدرتُ فَم يعقوب العريان إلى ثديي الأيسر، وبدأ يمتصّ بشراهة. عاد الجنّي يغتصبني مرة ثانية، وثالثة، ورابعة. فقدتُ الوعي. وعندما رجعتُ وجدتُ يعقوب العريان كومةً على الأرض، يئنُّ بلا حراك. أعتقد أن الجنّي الذي اغتصبني كان أكثر قسوة على يعقوب العريان. يا لحقول الألغام المزروعة في أجسادنا، من دون أن ندري بوجودها، وبمجرد أن ندوس لغماً منها بلا قصد، تنفجر كلُّها مُحوّلةً أجسادنا إلى سُعار محموم من الجحيم.

القرار

قلت لطبيبي النسائي: «قرّرت أن أمتنع عن الرضاعة الطبيعية». ألقى عليّ الطبيب محاضرة عن مزايا هذه الرضاعة. قلتُ: «قرّرت أن أمتنع عن الرضاعة الطبيعية». ألقى عليّ الطبيب محاضرة ثانية عن العلاقة الوثيقة بين هذه الرضاعة وعودةِ الأشياء الداخلية إلى وضعها الطبيعي الذي كانت عليه قبل الولادة. قلت: «قرّرت أن أمتنع عن الرضاعة الطبيعية». ألقى عليّ الطبيب محاضرة ثالثة فنّد فيها الأقوال التي تزعم أنّ الرضاعة الطبيعية تؤدّي إلى تهدّل الثدي وترهّله. قلت: «قرّرتُ الامتناع عن الرضاعة الطبيعية».

استسلم الطبيب، وكتب لي وصفة بأقراص قال إنها ستقطع تدفق الحليب بعد أسبوع من الاستعمال. أعرف أني لن أنسى تجربتي مع الجنّي ما حييت. وأعتقد أن يعقوب العريان لن ينسى البئر الخفيّة. ومع ذلك، قرّرت ردم البئر. إذا جاءتنا الرغبة في العودة، فسنجد البئر مغلقة، ونجد أنّ الجنّي الذي كان يَسكنها، رحل بلا عودة.

مرافعة يعقوب العريان المحامي
غير الحاسمة لصالح البدو والقبائل

قال لي يعقوب العريان:

ـ روضة! متى تكفّين عن ترديد كليشيهاتك عن البدو؟ ألا تعرفين أنّ البدو الذين تتحدثين عنهم، لم يعد لهم وجود في منطقتنا؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن البدو الرُحّل الذين كانوا ينتقلون بجِمالهم وخيامهم وراء المطر والعشب، لم يعد لهم وجود الآن.

ـ ماذا حدث لهم؟

ـ استقروا في المدن والقُرى.

ـ بأسرهم؟

ـ بأسرهم.

ـ ولكنني كنت أتصوّر . . .

ـ أنتِ، مثل الكثيرين، تخلطين بين البدو والقبائل. البدو هم المرتحلون الذين تتغيّر مواقع إقامتهم حسب تقلّبات الجوّ، أما القبيلة فقد تكون مستقرّة في موضعها طوال قرون.

ـ ولكن الطبائع البدوية واحدة.

ـ للصحراء منطقها الصارم الذي لا ينطبق على القبيلة المستقرّة. وللمدينة منطقها الصارم الذي يفرض نفسه على هذه القبيلة.

ـ لا أرى فرقاً بين بدو رُحّل وبدو مستقرين إذا كانت العقلية البدائية واحدة، والتصرّف المتخلّف واحداً.

ـ ما يبدو لكِ بدائياً متخلفاً، يبدو لأصحابه طبيعياً ومنطقياً.

ـ حتى أبذأ الممارسات النفطية؟

ـ خرجنا من البدو، ودخلنا في القبيلة، وأرانا الآن ندخل في النفط. حسناً! قبل النفط، كُنّا بدواً وبحّارةً نعيش على حافة الجوع. البدو يطاردون المطر الذي كثيراً ما يخلف

وعده. والبحّارة يغوصون بحثاً عن اللآلئ في بحارٍ كثيراً ما تضنّ بها. في سنوات الجفاف، كان الناس يموتون...

ـ ألا تكفّون عن ترديد هذه الاسطوانة؟ كلُّ الدول العربية عرفت المجاعات. ومجاعات الماضي لا تغفر جرائم الحاضر.

ـ فرق بين مجاعة تأتي بين حين وحين، ومجاعةٍ هي الوضع الطبيعي. وعندما جاء النفط بعد الفقر المدقع، كان من الطبيعي أن تدور بعض الرؤوس، وأن ينتج قَدْر من السلوك المُشوَّه.

ـ وهذا كل ما هنالك؟ بعض الرؤوس الدائرة وقليل من السلوك المشوَّة؟

ـ حاولت القبيلةُ أن تصبح دولة.

ـ دولة بدوية!

ـ قلتُ حاولَتْ ولم أقل نجحَتْ.

ـ نجحتْ دول النفط البدوية في أن تكون أكثر الدول فساداً في العالم.

ـ لا يوجد لدينا فساد يختلف عن فساد غيرنا. رأيتُ بعينيّ، هاتين!، سجّادة صغيرة مصنوعة من اللآلئ الحقيقية،

تتجاوز قيمتها عشرة ملايين دولار، مُعلَّقة على الجدار، في بيت عضو من أعضاء مجلس القيادة في بلد ثوري.

ـ وماذا عن قصوركم؟ هل هي مفروشة بالتراب؟ قرأتُ، مرّة، أن هناك قصراً واحداً يعادل ثمنه ثمن عشرة أحياء كاملة في بلادنا. هل تنكر هذا؟

ـ الأمور نسبية. بيتك الصغير هذا على الشاطئ، ألا تساوي قيمته قيمة خمسين منزلاً شعبياً في حيّ شعبي؟

ـ أنا لم أسرق هذا البيت. ونحن لا نتحدّث عنّي. نتحدّث عن فساد البدو.

ـ حسناً! وأنا أفضّل فساد البدو على الفساد المتحضّر الذي يسمح للزعيم بأنّ يقتل عشرة آلاف إنسان في يوم واحد.

ـ وأنا، يا رجل!، أفضّل الحياة في مجتمع يقتل عشرات الآلاف في يوم واحد، على الحياة في مجتمع يئد النساء كلَّهنّ، ويدفنهنّ في البيوت، ويحرمهنّ من أبسط الحقوق الإنسانية. تفضّل، يا محامي البدو!، ودافع عن هذا السلوك.

ـ لا أنوي الدفاع عن شيء. أنوي أن أقول إنه لا توجد

دول عربيّة متقدّمة، وأخرى متخلّفة. كُلّها متخلّفة! وللتخلّف مظاهرُ ووجوه كثيرة. قد تستطيعين أنتِ أن تتعايشي مع بعض المظاهر، وأستطيع أنا التعايشَ مع البعض الآخر، ولكن التخلّف يبقى تخلّفاً. نحن في سباق مع الزمن؛ إما أن نقتل التخلف أو يقتلنا التاريخ.

ـ وكيف نقتل التخلّف؟

ـ هنا المشكلة! ليس للتخلّف علاج سوى الحريّة. ومن أين تجيء الحريّة؟ دائرة مفرغة. التخلّف لا يُنتج سوى الاستبداد. والاستبداد يُنتج المزيد من التخلّف.

ـ إذاً، فأنت من المتشائمين؟

ـ روضة! قبل أن نلتقي كنتُ من المتشائمين جداً. عندما رأيتك أصبحت أؤمن بالمعجزات.

ـ آه! كم أنا بحاجة إلى معجزة!

راعته الرعشة في صوتي وأنا أردّد الجملة الأخيرة. ابتسم وقال:

ـ ألتمسُ عدالة المحكمة.

قلتُ:

ـ قرّرت المحكمة تأجيل النطق بالحكم.

زينب

يتأمل يعقوب العريان وجه زينب طويلاً. يحاول أن يجد صورته في وجهها. يسألني ببراءة:

ـ هل تشبه أحداً؟

أقول ببراءة:

ـ بكل تأكيد.

يقول بلهفة:

ـ تشبه من؟

أجيب ببراءة:

ـ تشبه هديل أختَها.

يعقوب العريان شاعراً

ورقة صغيرة تركها، أو نسيها، قبل أن يسافر

يا امرأة!..

أنا لستُ شاعراً..

ولكنني كنت أحمل ورقة بيضاء في جيبي..

عندما رأيتك..

وحين عدتُ إلى المنزل. . .

وجدتُ الورقة تتحوّل أمامي إلى شجرة. . .

تُنبتُ ألفَ غصن. .

ويُنبت كلُّ غصن ألفَ وردة. .

وتُنبت كلُّ وردة ألفَ قلب. . .

ينبض بحبك.

قصيدة نثرية كتبتُها
في رثاء يعقوب العريان
أثناء حياته

هل يدري البحر. .

أنه سيأخذ أمواجه وأصدافه. . .

ويتبعك؟

●

وهل يعرف القمر. .

أنه حين يشعُّ بعدك. . .

سيشّع على مقبرة؟

●

وهذه الرمال. . .

التي صنعتَ منها لآلئ لجيدي. . .

لماذا تحوّلت إلى دموع؟

قضية يعقوب العريان المحامي
التي تحوّلت إلى رواية «النوم مع السراب»

قال لي يعقوب العريان:

ـ روضة! سمعت منك عشرات التعليقات اللاذعة عن «النوم مع السراب». هل تريدين أن تعرفي القصة الحقيقية، قصة الرواية؟

ـ نعم، يا رجل!

ـ بدأت الرواية بقضيّة قانونية.

ـ بداية غريبة.

ـ غريبة جداً. مات صديق عزيز ـ ولنسمّه أبا فلان رقم ١ـ وكان أولاده بصدد بيع ڤيلا فخمة يملكها في عاصمة عربية. أثناء إجراءات البيع اكتشف الأولاد وجود عقد بين أبيهم وثلاثةٍ من أصحابه، ولنسمّهم أبا فلان رقم ٢، وأبا فلان رقم ٣، وأبا فلان رقم ٤. ينصّ العقد على أن يكون

تسجيل الڤيلا باسم أحدهم ـ أبي فلان رقم ١ـ أمّا الملكية فتكون مشاعاً بين الأصدقاء الأربعة. تعقّدت الأمور حين وافق أحد المُلاّك على البيع ورفض الاثنان الباقيان. أنّا لا أتعامل مع قضايا كهذه، ولكني تطوّعتُ بأخذ هذه القضيّة. . .

ـ من دون اتفاق مكتوب؟!

ـ روضة! تطوّعت. لم آخذ أجراً. بعد عناء، وافق جميع الشركاء على بيع الڤيلا واقتسام الثمن. تطوّعت، مرة ثانية، بإنهاء الإجراءات. كنتُ أقوم بجرد محتويات الڤيلا عندما دخلتْ فتاة مراهقة سألت عن أبي فلان رقم ١. لم أشأ أن أخبرها أنه مات، واستفسرت عن سبب السؤال. قالت إنّها كانت تتوقّع أن يحضر لها معه عقد عمل مع شركة طيران. بعد فترة قصيرة، دخلت مراهقة أخرى تسأل عن أبي فلان رقم ٢ الذي وعدها بإرسال مبلغ من المال. ثم جاءت فتاة ثالثة تسأل عن أبي فلان رقم ٤ الذي وعدها بالزواج. تصوّرت كيف كانت الحياة تسير في هذه الڤيلا التي تحوّلت في الرواية إلى «دار السرور».

ـ إذاً، لم تكن أنت مالكها؟

ـ لم أدخلها سوى مرة واحدة لجرد محتوياتها.

ـ ولم تكن من الزوّار؟

ـ لم أكن من الزوّار.

ـ وكل القصص التي في الرواية، كل المغامرات، كل الأحداث، كل الفتيات؟

ـ كل شيء من نسج الخيال، باستثناء ما سمعتُه من الزائرات الثلاث.

ـ يا رجل، أنت تتمتّع بخيال مخيف.

ـ روضة! نحن نصنع بخيالنا ما تمنعنا طبيعتنا من عمله.

ـ تعني...

ـ أعني أنّي أحبك.

المقطع الأخير من الأغنية التي تتقمّصني

إذا قرّرتَ أن تذهب..

وأنا أعرف أنك لا بدّ أن تذهب...

فلن يبقى شيء في الحياة..

يمكن أن أثق به..

لن تبقى سوى الحجرة الفارغة..

والفضاء الفارغ...

كهذه النظرة الفارغة..

التي أراها على وجهك...

لو بقيتَ معي..

لتحوّلتُ إلى ظلٍّ لك...

مُجرَّد ظلٍّ لك...

أرجوك!

لا تذهب!...

الليلة الأخيرة

حملني فِعْل الحب، على الشاطئ تحت القمر، إلى ذرىً شاهقة لم أعرفها من قبل، ورُبّما لم تعرفها أيُّ امرأة قبلي. أمّا الحلم الذي وصف مصرع يعقوب العريان فقد سحبني إلى هوّة سوداء أشدّ ظلاماً من القبر. لا توجد كلمات تصف الليلة الأخيرة. لا توجد كلمات.

هديتا الرحيل

أعطيتُ يعقوب العريان هديتين طال انتظاره لهما. أخبرته أني أحبّه، ولم أكن أكذب. وأوهمته أن زينب ابنته، وكنتُ أكذب.

الطبيب

قال لي طبيب العائلة: «مدام روضة! لا يوجد أيّ مرض عضوي، ولكنني أعتقد أنك بحاجة إلى أقراص لمعالجة الكآبة». قلت: «أعرف علاجاً مضموناً للكآبة». قال: «ولماذا لا تستعملينه؟». قلت: «لأني لا أؤمن بالانتحار. أفضّل الانتظار». أحمرَّ وجه الطبيب. تُرى هل تراوده، بين الحين والحين، فكرة الانتحار؟

منصف

قال لي زوجي: «حبيبتي، ما الحكاية؟ لا تتكلّمين، ولا تأكلين، ولا تنامين». صرخت في وجهه: «حالة عارضة. حالة ستزول. كل شيء يزول. كل الناس يزولون. أنا وأنت وهديل وحتى زينب الصغيرة، جميعنا سنزول». نظر إليّ مستغرباً، وعلى ملامحه حزن مكبوت. أضفت: «ألا يكفي أن أعاني من اللعنة الشهرية، آلاماً فوق احتمال البشر؟ هل تريد التفاصيل؟». تمتم، محرَجاً: «آسف، لم أكن أعرف. آسف جداً». شعرتُ باحتقار شديد لنفسي. وغضب أشدّ على الغائب. لا ردّه اللّه!

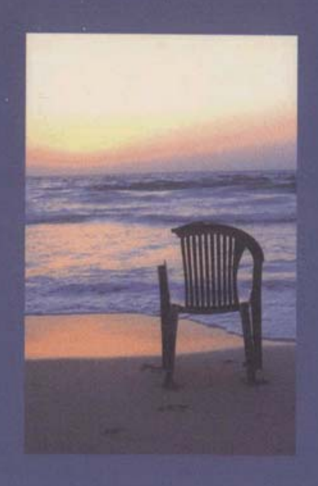
آسيا

قالت لي أمي: «روضة! لا بُدّ أن تأكلي. أصبحتِ هيكلاً عظمياً». قلت: «مجرد ريجيم. أريد أن أبدو رشيقة في عين الرجل القادم الذي سوف أقتله». هوت الصفعة على وجهي بلا إنذار. آسيا التي لم تؤنّبني من قبلُ، تصفعني الآن. ضمّمتها، وضمّتني، وبكينا معاً. بكينا. وبكينا. وهي تهمس «ابكي، يا حبيبتي! ابكي! ابكي! ابكي!».

يعقوب العريان

رجل من البدو. جاء ورحل. أخذ أنفه الضخم، وعينيه الصغيرتين، وجوعه الصحراوي، وعطشه الرملي، وشحوبه وهزاله ومرضه وذهب. ترك رائحته تسكن الهواء الذي أتنفّسه. وترك ذكرياته تفرش الأرض التي أمشي عليها. تركني أسيرةَ الساعات القليلة التي كنت أجود بها عليه ببخل أسطوري. تركني جاريةً في قبو عالمه الذي تلاشى مثلَ السراب الذي جاء منه. هذا البدوي اللئيم! عبدي، الذي أصبح بعد موته، سيّدي. هذا البدوّي الماكر! ثبّت حواسي الخمس في اتجاهه، وطوى خيمته، وركب ناقته، ورحل. رجل غريب! هل أستطيع أن أحب رجلاً بعده؟ من يدري؟ لا أدري. لا أظن. لا أعتقد. لا!.





حَزمتَ حقائبك

ومنحْتَني البحرَ اللازوردي

ولوَّحتَ لي

ولوَّحتُ لك . . .

وحين عدتُ . . .

غرقتُ في بحر من الدماء . . .

. . .

ISBN 1 85516 564 3

